القسم الأول: الحب فى الإسلام

المبحث الأول: الحب الإلهى

- ☐ حب الله تعالى لعباده
- ☐ حب العباد لله تعالى
- ☐ أحباب الله

المبحث الثانى: فى حب رسول الله ﷺ

المبحث الثالث: المحبة لله.. والمحبة فى الله

المبحث الرابع: حب الشهوات

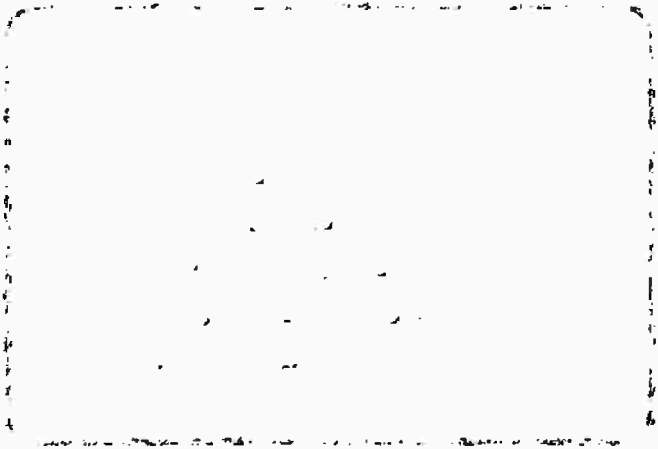

المبحث الأول

الحب الإلهى

- حب الله تعالى لعباده
- حب العباد لله تعالى
- أحباب الله تعالى

الحب

الحب فى اللغة هو ميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة أو الجذابة أو النافعة..

والمحبة هى الإرادة.. ومنه قول الله تعالى:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ (التوبة: ١٠٨)

لكن المحبة أبلغ من الإرادة. فهى إرادة مع لذة وسرور..

والهُيام شدة الحب.. والعشق أشد، والأصل في العشق التصاق طرفين أحدهما بالآخر. فهو عاشق ومعشوق.. والشَغَفُ حب يبلغ شَغَاف القلب أى غلافه وقيل: باطنه.

قال تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ (يوسف: ٣٠)، وفسر ابن عباس الشغف بالحب القاتل، والشغف - بالعين المهملة = دون ذلك.

والحب الإلهى يعنى جانبين:

١ - محبة الله تعالى لعباده وهى إنعامه عليهم وإكرامه لهم وتوفيقه إياهم.

٢ - محبة العباد لله تعالى وهى الزلفى إليه، والولاء لدينه وشرعه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(آل عمران: ٣١)

حب الله تعالى لعباده

الله تعالى خلق الإنسان.. والخلق تكريم لأن الوجود خير من العدم، وقد مر هذا الخلق فى رحم الأم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم عظاما مكسوة باللحم، ثم نفخ فيه الروح وأمسك عليه الحياة فى ظلمات ثلاث هى: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، أو هى ثلاثة أغشية صماء تحيط بالجنين، تمنع نفاذ الماء والضوء والحرارة، ثم يخرج الجنين من ذلك القرار المكين بعدما يسر الله له السبيل فيستهل صارخًا ليبدأ الحياة على ظهر هذه الأرض.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١)

ومنح الله تعالى الإنسان نعما لا تعد ولا تحصى. فهيأ له كل أسباب الرزق والطعام والماء وأحاطه بما ينفعه من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب..

والإمداد بالنعم رعاية وعناية..

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ .

(إبراهيم: ٣٢ - ٣٤)

واصطفى الله الإنسان للتكليف وحمله مسئولية تطبيق منهج الله لقيادة الحياة، والتكليف تشريف، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب: ٧٢)

وكانت الغاية الكبرى من التكليف هى الهداية إلى الحق، والسلام فى الحياة، والنور فى الدنيا والآخرة..

قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(المائدة: ١٥، ١٦)

وينضوى الخلق والتسخير والإمداد والتكليف تحت الرحمة الإلهية تلك الرحمة التى هى من أسماء الله الحسنى، وسبق بها القضاء الأعلى فى التجلى الأعظم على الإنسان.

وقد أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: قال الله عز وجل: «سبقت رحمتى غضبى».

وفـى رواية: قال ﷺ: [لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى].

وإذا كان الناس يتراحمون ويسعون إلى التراحم فإن كل مظاهر الرحمة فى عالمنا هذا لا تساوى إلا جزءًا يسيرا من رحمة الله العامة الشاملة، فهو سبحانه الرحمن الرحيم.

وفـى صحيح الحديث قال ﷺ: [جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنه تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه].

وذات يوم قدم على النبى ﷺ سبى، جاء به عمر بن الخطاب رضى الله عنه، غنمه من معارك المشركين، وكان فى السبى امرأة تبحث عن صبى لها، وظلت تسعى بين مجموعة الأسرى عسى أن تجد صبيها، وفجأة التقطته عيناها فأخذته بحنو بالغ وشفقة كبيرة فألصقته بصدرها وبدأت تلقمه ثديها وترضعه.

وكان الموقف مؤثرًا فقال الرسول ﷺ معلمًا:

أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟!

قالوا: لا والله وهى تقدر ألا تطرحه.

فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها.

وهذه الرحمة العامة فى الدنيا تشمل كل كائن. لكن رحمة الله فى الآخرة تقتصر على من انتفع بنعمة الدنيا الانتفاع الصحيح، والتزم التكليف وحرص على الأمانة وأخلص لله دينه..

وقمة الرحمة الإلهية هى الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.. قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾
(الاعراف: ١٥٦ : ١٥٧)

١ – النبوة رحمة لأن بها بيان الحق من الباطل، والرشد من الغى، والهدى من الضلال، والفضيلة من الرذيلة. ولأن بها قانون البشرية فى علاقاتها الاجتماعية وبنائها الحضارى ومسيرة وجودها فى الحياة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ١٧٤ : ١٧٥)

٢ – التيسير فى التشريع الإلهى رحمة. فالتكليف مرتبط بوسع الإنسان حتى يتحقق التوازن الروحى والمادى، وينطلق الإنسان من فطرته السوية ليصل إلى تلك المعادلة الدقيقة فى قوله تعالى:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٧٧)

٣ – قبول التوبة ومغفرة الذنوب رحمة، فمن أقبل على الله تائبًا نادمًا مستقيمًا غفر الله له وبدل سيئاته حسنات وعفا عنه..

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (الزمر: ٥٣، ٥٤)

وقال جل شأنه: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ٥٤)

٤ – البعث رحمة فقد جعل الله للإنسان موعدًا للقائه لن يخلف، تتحقق فيه العدالة الكاملة، وتنجلى فيه الحقيقة الكبرى، ويلقى كل إنسان كتاب عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها..

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢)

وقد أضيف الحب إلى الله تعالى في نصوص القرآن كثيرًا بدلالات متعددة:

(أ) منها ما يجعل الحب علاقة تبادلية تؤكد فضل الله في ثوابه وعطائه، وعمق إيمان العبد وولائه..

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥٤)

(ب) ومنها ما يحدد أوصافا تستوجب رحمة الله مثل:

□ التقوى.. قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ٧٦)

والتقوى لغة اتخاذ وقاية مما يضر، وشرعا امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه فإنها تقي صاحبها من عذاب الله، وحقيقة التقوى متوقفة على العلم. فإن الجاهل لا يدرى ماذا يتقى؟ ولا كيف يتقى؟ وهي كلمة جامعة لحقوق الله وحقوق العباد.

□ **التوكل**، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

والتوكل على الله فى حقيقته الشرعية عمل قلبى قائم على حسن الثقة بالله، والرضا بمواقع القضاء مع الأخذ بالأسباب المأمور بها والاجتهاد فى تحصيلها وترك العواقب لله أحكم الحاكمين.

□ **التوبة**، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

والتوبة إقلاع عن المعصية وندم على ما وقع وعزم على عدم العود إليها ورد الحقوق لأصحابها واستقامة على الطاعة..

□ **العدل**، قال الله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (المائدة: ٤٢)

والعدل وضع الشىء فى موضعه، والأمر المتوسط بين طرفى الإفراط والتفريط، والتوزيع.. على سواء بلا زيادة ولا نقص.

□ **الجهاد**، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤)

والجهاد بذل النفس والنفيس ردًا للعدوان وتأمينًا للعقيدة، وحفاظًا على كرامة الإنسان.

(جـ) ومنها مايبدؤه الله على عباده من النعم أو ما يكشفه من النقم أو ما رفعه من البلاء..

قال الله تعالى فى حق موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ (طه: ٣٩)

وقال تعالى فى إجابة دعوة المضطر: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: ٦٢)

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (الشورى: ٢٨)

وقال جل شأنه فى حق أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص: ٤٣)

حب العباد لله تعالى

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ (الرحمن: ٦٠)

قانون عـام ذكره الله تعالى فى حق المؤمنين وجزائهم فى جنات النعيـم والفردوس المقيم، لأنـه لا أحد أوفى من الله، وقد وعـد – ووعده الحق – أن يجزى الحسـنى وزيـادة لمن خلص دينه وصدق ولاؤه واستقام سلوكه وحسن خلقه..

ويأتى التساؤل عن هذا القانون فى حق البشر، هل هم أوفياء لنعم الله شاكرون فضله؟!

قد نجد كثيرين تنطق ألسـنتهم بحمد الله واصفين أنفسهم بحب الله وتنحصر قضية الحب عندهم فى كلمة ودعوى، وتضيع الحقيقة الكبرى..

إن حب العباد لله تحدده الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣١، ٣٢)

فصحـة الدعوى متوقفة برهانهـا وهو الاتباع للمنهج. الذى حدده الرسـول ﷺ بهذه الحقائق:

(أ) **الإيمان:** وهو التصديق اليقينى بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره..

(ب) **الإسلام:** وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

(جـ) **الإحسان:** وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وصاغ بعضهم هذا المنهج فى نظم شعرى هكذا:

عمدة الدين عندنا كلمات أربع قالهن خير البرية
اتق الله وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بنية

والإشارة فى هذا النظم إلى الأحاديث الشريفة الآتية:

١ - عن أبى جندب بن جنادة وأبى عبد الرحمن معاذ بن جبل رضى الله عنهما عن الرسول ﷺ قال: [اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن].. (رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح).

٢ - عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله، وأحبنى الناس، فقال: [ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس.](حديث حسن رواه ابن ماجه).

٣ - عن أبى هريرة رضى الله عنه: قال: قال الرسول ﷺ: [من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه].(حديث حسن رواه الترمذى)

٤ – عن أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت الرسول ﷺ يقول: [إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه].. (متفق عليه)

إن هذا المنهج المركب من الإيمان والإسلام والإحسان يتحقق بطريقين متلازمين هما:

– طريق القرب بأداء الفرائض والقيام بالأركان

– وطريق الحب بأداء النوافل والسنن.

ولن يتحقق الحب بغير القرب فلا تقبل نافلة حتى تؤدى فريضة، فليس معقولاً أن يترك إنسان الصلوات الخمس ثم يتهجد ليلاً..!! وليس مقبولاً أن يدع إنسان صوم رمضان ثم يصوم يوم عرفة وعاشوراء..

وليس منطقيًا أن يقرأ إنسان القرآن ثم ينتهك أحكامه وتشريعاته.. ومتى ترقى العبد من مرتبة القرب إلى مرتبة الحب لله بادله الله تعالى حبا بحب ووصلا بوصل وكان من أولياء الله الذين يتولاهم الله بالرعاية والعناية والحفظ ويتولون شرع الله بالتطبيق والالتزام..

وفى صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قال: (من عادى لى وليا فقد

آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدى بشـىء أحب إلىّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشـى بها، وإن سـألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه).

فأولياء الله هم أحباب الله.

أحباب الله تعالى

أحباب الله لهم قيم يلتزمون بها وآداب يتحلون بها، وأخلاق يتميزون بها، فمن أحب الله أحب شـرعه ودينه. ومن أحب الشـرع والدين التزم ووفى..

فالعمـل الصالح هو حلقة الوصل بين طرفى الحب من الجانب الإلهى الأعلى ومن الجانب البشرى الأدنى.

ومن الدعاء المأثور:

(اللهـم إنى أسـألك حبك وحـب من يحبك وحب عمـل يقربنى إلى حبك).

ونسـوق نماذج لأحباب الله تأصيلاً لنهج الحب، وبيانًا لقيمه. ودعوة إليه..

التوابون

التائب حبيب الله يفرح به ويمنحه رضوانه ويمده بأنواره ويسوقه إلى النعيم المقيم..

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

(التحريم: ٨)

وفى صحيح مسلم، قال رسول الله ﷺ: [لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها. وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: (اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح).]

وقد جاء الأمر الإلهى بالتوبة عاما فى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١)

وحقيقة التوبة الشرعية إقلاع عن المعصية، وندم على ما وقع، وعزم على عدم العود إليها، واستقامة على منهج الله.

فلا توبة مع الإصرار فالذى يمارس المعصية ويقيم عليها لا توبة له.

وقد لا يكون الإقلاع عن المعصية توبة، وذلك كمن ترك المعصية لمعنى آخر غير الندم، فمن ترك الفاحشة لعدم استطاعته لها، أو ترك الخمر لضررها وظل قلبه متعلقا بها لا يعد تائبًا.. فإن التوبة عمل قلبى تصحبه حركة الجوارح فى استقامة واحدة نحو مرضاة الله تعالى.

ولكى يمحو المرء آثار معصيته يحتاج إلى التزود بالتقوى فإن الحسنة تمحو السيئة، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (هود : ١١٤)

وإذا كانت المعصية متعلقة بحقوق العباد فلابد من رد المظالم إلى أهلها أو مسامحتهم فيها، وقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه يوما فقال: [أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولامتاع، فقال: إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار]. رواه مسلم.

إن العبد حين يبدأ طريقه إلى الله تعالى بالتوبة يأخذ فى الترقى من النفس الأمارة بالسوء، إلى النفس اللوامة، إلى النفس المطمئنة التى اطمأنت

إلى ربها فى حكمه وحكمته، وسلكت مسالك الأنبياء والصالحين، واستحقت ذلك النداء الإلهى الكريم: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ (الفجر: ٢٧: ٣٠)

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر على سواء، تكون من الكفر والفسوق، وتوبة الكافر هى إسلامه، وتوبة العاصى هى استقامته، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال: ٣٨)

والتوبة بهذا المعنى تلتقى مع الاستغفار فإن قولنا لشخص: استغفر الله، يساوى قولنا له: تب إلى الله..

فعند الافتراق يكون اللفظان بمعنى واحد..

فإن اجتمع اللفظان فى عبارة واحدة اختلف المعنى، فإذا قلت لشخص فى جملة واحدة: استغفر الله وتب إليه، أصبح الاستغفار من معاصى الماضى وأصبحت التوبة من معاصى المستقبل، بمعنى اندم على ما مضى من سيئاتك واحذر أن تفعلها فى المستقبل.

قال الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ٥٢)

والمسلم مطالب بالتوبة من الذنب وإن تكرر، وكلما أحدث ذنبًا جدد توبة، عسى الله أن يهديه، وفى صحيح مسلم بسنده عن أبى هريرة

عـن النبى ﷺ فيما يحكى عـن ربه عز وجل قال: أذنب عبد ذنبًا فقـال: اللهم اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبًا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أى رب اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب..

ثم عاد فأذنب فقال: أى رب اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبـدى ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب،اعمل ماشـئت فقد غفرت لك، قال الراوى: لا أدرى أقال فى الثالثة أوالرابعة اعمل ما شئت).

وقد وهم بعض الناس فظنوا أن مثل هذا الحديث دعوة إلى استمرار المعصية، ولكن الحقيقة أن الحديث دعوة إلى التطهر المسـتمر حتى لا يظل الشـيطان قابعا فى عقل الإنسـان وقلبه) فـإن البديل للتوبة المتجددة هو سـبيل المعصية الدائم، ولذا قيل للحسـن: ألايسـتحى أحدنا من ربه يسـتغفر مـن ذنوبه ثم يعود، ثم يسـتغفر ثم يعود؟! فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملوا من الاستغفار.

ولنعلم أن باب التوبة مفتوح لكل عبد. كافرًا كان أو عاصيا، يرجع إلـى الله ويقلع عن كفره أو معصيته، ويسـتقيم على الطاعة، ووقت هذه التوبة حياة العبد كلها ما لم يصل المرء إلى مرحلة النزع الأخير أو الغرغرة فعندئذ لا تقبل توبته..

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٧-١٨)

والمراد بالجهالة فعل الذنب نفسه، وساق الإمام ابن كثير فى تفسير تعبيرات على لسان الصحابة والتابعين تؤكد ذلك، قال مجاهد: كل من عصى الله خطأ أو عمدًا فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة..

وجاءت الأحاديث الشريفة محددة وقت التوبة للعبد، فأخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

فالتوبة لا تقبل من أحد شخصين:

□ عاص عاين الموت ووصل إلى حال الغرغرة وبلغت روحه إلى الحلقوم.

□ كافر مات على كفره فلا مغفرة له لأنه قد انقضى زمن التكليف فى الدنيا، ووصل إلى دار الجزاء فى الآخرة. والفرق بين العاصى والكافر فى الآخرة أن العاصى قد يعفو الله عنه وقد يعاقبه على قدر معصيته ثم تنقضى عقوبته ويدخل الجنة.

أما الكافر فهو فى جهنم لا يموت فيها ولا يحيا خالدًا مخلدًا فيها أبدا. وهناك وقت محدد للتوبة يتعلق بالبشرية جمعاء ولايخص فردًا بعينه وهو أن باب التوبة مفتوح للبشرية مالم تطلع الشمس

من مغربها مؤذنة بزوال الدنيا وقيام الساعة. وعندئذ لاينفع نفسا إيمانها حتى ولو كانت صحيحة سليمة، قال الله تعالى:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٨)

وجاء في صحيح البخاري بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن مَنْ عليها. فذلك حين (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا).

مكفرات الذنوب

ذنوب الإنسان إما كبائر وإما صغائر.. فالكبائر هى التى قدر لها الشرع عقوبة محددة أو توعد عليها وعيدًا شديدًا كالزنا والربا والقتل والسرقة والقذف وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين.

وكفارة هذه الكبائر إقامة الحد على مرتكبها إن وصل الأمر إلى ساحة القضاء أو التوبة النصوح..

وفى صحيح البخارى بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: كنا عند النبى فى مجلس فقال: بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا، وقرأ هذه الآية كلها[1]، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارته، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه.

وإن كانت الذنوب صغائر وهى ما لم يرد فيها حد شرعى ولم يتوعد الشارع عليها وعيدا شديدا فإن كفارتها تتحقق باجتناب الكبائر وأداء الطاعة وفعل الخيرات مما يكسب المرء حسنات ويمنحه فضلا وثوابا يثقل به الميزان يوم القيامة.

---

(١) للحديث روايات متعددة. والمراد بالآية آية بيعة النساء فى سورة الممتحنة.

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١)

ومكفرات الذنوب من أعمال البر والمعروف كثيرة.. منها:

١ـ الوضوء:

فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب.

٢ـ دعاء الوضوء:

روى مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: (ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إلافتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء).

٣ـ صلاة ركعتين بعد الوضوء:

روى البخارى ومسلم أن عثمان رضى الله عنه توضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال: من توضأ

١٣ـ الحج:

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه).

١٤ـ العمرة:

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة).

١٥ـ طلب العلم:

روى أبو داود وابن ماجة وابن حبان عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر).

١٦ـ الجهاد:

روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله).

١٧ـ قراءة القرآن:

روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لاأقول ألم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف وميم حرف).

١٨ـ الذكر:

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قال: لا إله إلاالله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، فى اليوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك).

١٩ـ الصبر على البلاء:

فى صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) رواه البخارى.

نحـو وضوئى هذا ثـم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسـه غفر له ماتقدم من ذنبه).

٤ـ الأذان:

روى أحمد بإسـناد صحيح عن ابـن عمر رضى الله عنهما: قال، قال رسـول اللـه ﷺ: (يغفر للمؤذن منتهى أذانه ويسـتغفر له كل رطب ويابس).

٥ـ الدعاء عقب الأذان:

روى البخـارى عـن جابـر بـن عبد اللـه رضى اللـه عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: من قال حين يسـمع النـداء: اللهم رب هذه الدعوة التامـة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسـيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته - حلت له شفاعتى يوم القيامة).

٦ـ الصلوات الخمس:

روى البخارى ومسـلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شـىء؟ قالوا: لا يبقىٰ من درنه شىء قال: فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا).

٧ـ السعى إلى المساجد:

روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال: من تطهر فى بيته ثم مشـى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة).

٨ـ صلاة الجمعة:

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام).

٩ـ الصدقة:

روى الترمذى فى حديث معاذ، قال النبى ﷺ : الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار.

١٠ـ الصوم فى رمضان:

روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه).

١١ـ صيام يوم عرفة:

عن أبي قتادة رضى الله عنه قال: سئل النبى ﷺ عن صوم يوم عرفة قال: (يكفر السنة الماضية والباقية) رواه مسلم والترمذى إلا أنه قال: صيام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى بعده والسنة التى قبله.

١٢ـ صيام عاشوراء:

عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: (يكفر السنة الماضية) رواه مسلم.

المتوكلون

(أ) الايمان والتوكل:

العقيدة الصحيحة هى الدين الخالص الذى لايعرف معبودا غير الله الواحد الأحد، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ (البينة : ٥)

والعقيدة الإسلامية قائمة على اليقين الكامل بأن الخلق والأمر لله عز وجل، فهو سبحانه صاحب الهيمنة الكاملة على الملك والملكوت.. قال جل شأنه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩﴾ (الأنعام : ٥٩)

وانطلاقا من هذه العقيدة فإن الكائنات جميعا واقعة تحت القدرة الإلهية والسلطان الأعلى، قال جل شأنه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝١٥﴾ (الرعد : ١٥)

وعلى هذا الأساس فالمسلم يتوكل على الله فى كافة شئون حياته حتى يحظى بمقام الحب ويكون فى كفالة العلى الأعلى.. قال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ (الطلاق : ٣)

وعندما يقول المسلم هذه العبارة المأثورة ويرددها: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) يكون قد جمع بين الاعتراف بالتوحيد والقدرة والحكمة..

فالتوحيد في قوله (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)

والقدرة في قوله (له الملك..)

والحكمة في قوله (وله الحمد..)

ولهذا جاء الأمر القرآني واضحا صريحا ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ (الفرقان: ٥٨)

ولقد جاء في الحكم: من اعتز بغير الله هلك به، فالإنسان الذي يدع التوكل على الله ويركن إلى غيره من منصب أو جاه أو ولد أو مال يكون هلاكه فيما اعتز به من دون الله..

ومن أمثلة ذلك قارون الذي اعتز بماله وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: ٧٨)، فكان جزاؤه ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص: ٨١)

وحين اعتز فرعون بملكه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ (الزخرف: ٥١) فكان جزاؤه أن غرق في البحر وأصبح عبرة للأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو

إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ (يونس : ٩٠ - ٩٢)

إن عمق الإيمان يمنح الإنسان عمق التوكل، ويسرى فى كيانه كله، فى مدخله ومخرجه، وفى نومه ويقظته..

وفى حديث رواه أبو داود والترمذى عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (من قال -يعنى إذا خرج من بيته- بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان) فالمسلم حين يخرج من بيته ويحس اليقين بالله عز وجل ويمارس نشاطه متوكلا على الله مستحضرا عظمته يكلؤه الله ويرعاه ويسدد خطاه..

كذلك إذا أوى المسلم إلى فراشه يسلم نفسه إلى الله متوكلا عليه مفوضا الأمر إليه، وجاء فى صحيح الحديث عن أبى عمارة البراء ابن عازب رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (يا فلان، إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت، فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيرا).

إن الإيمـــان والتوكل مقترنان لا ينفـك أحدهما عن الآخر، فالتوكل على الله قرين عقيدة التوحيد، وقد جاء التعبير القرآنى بأسلوب الحصر ليجعـل التوكل من دلائل الإيمان وســمات المؤمن الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ (الأنفال: ٢)

(ب) التوكل والأخذ بالأسباب:

التوكل على الله تعالى فى حقيقته عمل قلبى قائم على حســن الثقة بالله والرضا بمواقع القضاء مع الأخذ بالأسباب المأمور بها والاجتهاد فى تحصيلها..

والقضية فى يسر وسـهولة هى أن المسلم يعتقد أن الله جل جلاله رتب الأســباب والمســببات، وجعل بينهما علاقة عادية بمعنى أن النار مثلا تحرق عند الملامسة، وهذا الإحراق ليس لازمًا لزومًا عقليا لايتخلـف أبدا، وليس منفـكًا، بحيث لانعيره اهتماما، بل جرت ســنة الله تعالى بأن النار تحرق عند الملامسة، وهذا الأثر قائم على الســنة التى قدرها الله تعالى. ويجوز أن تتخلف بإرادة الله تعالى معجزة لنبى أو كرامة لولى..ومن هنا فالمســلم يلتزم بالأمر القرآنى ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ٧١) وبالنهى القرآنى ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (البقـرة ١٩٥)، ويحتاط فى أعماله كلها احتياطا كاملا بقدر مامنحه الله من عقل وما ركب فيه من مواهب، وقبل ذلك وبعده يقول: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (النساء ٧٨).

وسيدنا رسول الله ﷺ – وهو أول العابدين، وأخشى الناس لله وأتقاهم له، وأعرفهم بجلال الله وكماله – كان يعد للأمر عدته، ويأخذ بالأسباب ويباشرها.. فكل غزوات الرسول ﷺ قائمة على التخطيط المحكم الدقيق، وهناك دراسات للعسكرية الإسلامية تبرز مدى المقدرة الفائقة في التخطيط للمعارك الحربية..

ومن المعروف أن الرسول ﷺ اختفى مع صاحبه أبي بكر الصديق ثلاثة أيام في غار ثور أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة، وعمل خطة محكمة وزعها على مجموعة عمل متكاملة؛ فقد استخلف علي بن أبي طالب في فراشه ليوارى عنه أعين المشركين المتربصين بداره، واستأجر أبو بكر رجلاً يدلهما على الطريق هو عبد الله بن أريقط، وكان عبد الله بن أبي بكر يستطلع أخبار المشركين ثم يأتيهما ليلاً فيخبرهما، ومعه عامر بن فهيرة بالغنم ليعفو على أثر الأقدام، كما شاركت أسماء بنت أبي بكر في حمل الزاد..

وعندما استطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار ويقفوا على بابه قال أبوبكر رضي الله عنه: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رءوسنا فقلت: يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال رسول الله ﷺ: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟ ونزل قوله تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ (التوبة : ٤٠)

والقانون الذى نستخلصه وتؤكده حوادث التاريخ كلها هو: تحقق ما معك من قوى مادية واستنفد جهدك الإنسانى وثق بنصر الله وتوكل عليه.. ولهذا كانت وصية الرسول ﷺ للأعرابى حين أراد أن يهمل ناقته قال له: اعقلها وتوكل..

ومن المواقف الرائدة لفقه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا الجانب ماجاء فى صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان تبوك - قرية فى طريق الشام مما يلى الحجاز - لقيه أهل الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، قال ابن عباس فقال عمر: ادع لى المهاجرين الأولين، فدعوتهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام. فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عنى.

ثم قال: ادع لى الأنصار، فدعوتهم له فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا لاختلافهم، فقال: ارتفعوا عنى..

ثم قال: ادع لى من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء..

فنادى عمر في الناس: إني مُصْبحٌ على ظَهْر فأصبِحُوا عليه. أى عائد على ظهر الراحلة من حيث أتت وراجع إلى وطنى فتأهبوا لذلك..

فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله؟!

قال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، وكان عمر يكره خلافه، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديا له عُدْوتان (جانبان)، إحداهما خصبة والأخرى جَدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله، فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته فقال: إن عندى من هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه)، فحمد الله عمر بن الخطاب ثم انصرف.

هكذا يكون التوكل على الله مقترنا بالأخذ بالأسباب..

(جـ) أثر التوكل في حياة المسلم:

التوكل على الله تعالى سكينة النفس الإنسانية، وطمأنينة للقلب، وهدوء عقلى.. فالمسلم حين يتوكل على الله يمارس حياته بنشاط وتخطيط ومتابعة، ويدع عواقب الأمور لله أحكم الحاكمين مؤمنا بالحكمة القرآنية: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

(البقرة: ٢١٦)

فالمسلم فى حال الغنى والجاه وكثرة الأولاد شاكر للنعمة يستخدمها فى حدودها الشرعية، يملكها ولا تملكه، ليس عبدا للدينار والدرهم، وليس مستكبرا على خلق الله، وليس مفتونا بما منحه الله..وهو فى حال الفقر أو المرض أو ما تكره النفس – صابر محتسب يبتسم للحياة فى هدوء وشعاره الدائم قول رسول الله ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له).

إن التوكل ثقةٌ فى الله وكفالته لعباده الصالحين – تجعل المسلم يتجاوز المخاوف كلها، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الزمر : ٣٦ –٣٧)

ففى المجال العسكرى متى وجد التوكل محبوبًا بإعداد القوة المتاحة تحقق النصر للمؤمنين وحاقت الهزيمة بالكافرين..قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

(آل عمران : ١٧٣ – ١٧٥)

إن المسلمين يوم واجهوا أعداءهم على مدار التاريخ لم يكونوا بالأقوى عدة ولا بالأكثر عددًا، وإنما حرص المسلمون على الموت فوهبت لهم الحياة، وحققوا القوة المتاحة وتوكلوا على الله فمنحهم النصر المؤزر والفتح المبين..

وفى مواجهة مصاعب العمل وتكاليف المسئولية متى وجد التوكل على الله تحقق الرضا النفسى، وأدى المرء أمانته لوجه الله وهو سعيد بالمشاق مطمئن إلى العواقب..

وفى أربع سور متواليات ومع أربعة أنبياء كان هذا المعنى واضحًا جليًا..

ففى سورة التوبة جاء الوصف لسيدنا محمد ﷺ بالحرص البالغ على هداية الناس، والشفقة البالغة على الناس من إعراضهم، وكان التوجيه الإلهى فى هذا المقام هو تفويض الأمر لله وحسن التوكل عليه.. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (التوبة: ١٢٨-١٢٩)

وفى سورة يونس جاء موقف سيدنا نوح عليه السلام بعد ما يئس من إيمان قومه، وكان التوكل على الله هو السلوى.. قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ (يونس : ٧١)

وفي سورة هود كان الموقف الختامي لدعوة سيدنا شعيب عليه السلام هو إبراء الذمة وتوضيح الهدف، وإعلان الغاية مصحوبة بالتوكل على الله. قال جل شأنه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ (هود : ٨٨)

وفي سورة يوسف آية ٦٧ كانت مواجهة هموم الحياة وضائقاتها بالتوكل على الله. فهو معقد الرجاء وموطن الأمل وحافز التفاؤل، ويتجلى ذلك واضحا في موقف يعقوب عليه السلام حين فقد يوسف واضطر لإرسال أخيه، وقال: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وحين فقد يعقوب ابنيه معا وابيضت عيناه من الحزن ظل الأمل في الله لا ينقطع. قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ (يوسف ٨٦ – ٨٧)

المبحث الثانى

فى حب رسول الله ﷺ

- انشـــراح صدر رسول الله ﷺ
- الرسول الشاهد ﷺ والأمة الشهيدة
- ذكرى ميلاد رسول الله ﷺ

انشراح صدر الرسول ﷺ

- مفهوم انشراح الصدر
- انشراح صدر الرسول ﷺ بشق الصدر
- انشراح صدر الرسول ﷺ بعلوم القرآن
- انشراح صدر الرسول ﷺ برؤية الآيات
- انشراح صدر الرسول ﷺ بثناء الله عليه
- انشراح صدر الرسول ﷺ بعظم قدره

مفهوم انشراح الصدر

هناك حب لا يتحقق منه شيء ويظل أملا يراود صاحبه حتى يصيبه باللوعة والأسى..

وهناك حب تعقبه حسرات لا يستشعرها المرء إلا بعد وقوعها كحب الشهوات الآثمة.. فمن الحب ما قتل..

لكن أن يكون الحب مصاحبا للسعادة، ملازما للسرور، مقترنا بحسن العواقب، فهذا هو الحب الحقيقي الذي نسميه شرعًا انشراح الصدر، وتلك درجة عليا عايشها الأنبياء والأولياء ومن سار على دربهم وسلك طريقهم..

الشرح هو البسط، وصدر الإنسان معروف، وصدر كل شيء أوله، وانشراح الصدر بسطه بنور الله تعالى، وإلقاء السكينة فيه.. وانشراح الصدر يرجع إلى العلم بالله تعالى والفقه في الدين والولاء الكامل للشرع الحنيف..

ولعظم هذا المعنى الكبير والكريم دعا موسى عليه السلام ربه ضارعًا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ (طه: ٢٥)، وذلك عقب التكليف الإلهي له بتحمل الدعوة في قوله جل شأنه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (طه/ ٢٤) فأمانة الرسالة تتوقف على كمال العلم بها والعمل لها..

ومن خلال تتبعنا لانشراح الصدر فى القرآن نجد أن الله تعالى جعل الهداية مرتبطة بانشراح الصدر القائم على قبول الإسلام واليقين بحقائق الدين، والولاء للمنهج الإلهى، وجعل الضلال فى عكس ذلك.. فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

لقد شبهت الآية الكريمة ضيق الصدر بالتصعيد فى السماء حيث يضيق نفس الإنسان كلما ارتقى نظرا لنقص الأكسجين، حتى يصل إلى مرحلة ينقطع فيها النفس ولا يستطيع المرء أن يجد حوله ما يحفظ حياته..

كذلك فإن المنحرف الضال يضيق بشرائع الدين وأحكام الإسلام شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الشرك، وينقطع عنه النور، وتضيع منه الحياة الطيبة، ويهوى إلى مكان سحيق فى جهنم وبئس القرار..

وجعل القرآن انشراح الصدر بقبول الإسلام مقابلاً لقسوة القلب بالخلو عن ذكر الله، فقال جل شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الزمر: ٢٢)

والمقابلة هنا بين أمرين أحدهما مذكور وهو من شرح الله صدره للإسلام والآخر محذوف دلّ عليه السياق وهو من كان أعمى القلب

معرضًا عن الإسلام. وشتان ما بين الأمرين، فإن القلوب تتسع وتنشرح وتسعد بالإسلام، وإن القلوب تقسو وتضيق وتشقى بالإعراض عن شرع الله والبعد عن ذكر الله.

وعندما يقف الإنسان مضطرًا مكرهًا أمام طواغيت البشر الذين يفرضون الكفر بسطوة الملك فإن الله تعالى قد رخص للمسلم فى كلمة الكفر باللسان تقية أمام هؤلاء الجبابرة إنقاذًا لنفسه وإحياء لها، طالما أن قلبه منشرح بالإيمان، مطمئن بالإسلام، موصول بنور الله..

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

(النحل: ١٠٦-١٠٩)

إن أوصاف هؤلاء الذين شرحوا بالكفر صدورهم أنهم آثروا الدنيا وملذاتها وتمرغوا فى أوحالها وأرجاسها وأهملوا عقولهم فلم يتأملوا آيات الأنفس والآفاق، وصموا آذانهم أمام دعوة الحق، وأطبقوا أجفانهم أمام نور الله عز وجل، وسدوا كل منافذ المعرفة وأغلقوا كل أبواب الخير..

وهناك آثار تروى فى انشـراح الصدر، مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضًا، منها ما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم أن النبى ﷺ قال: (إذا دخل الإيمان أو النور القلب انفسح وانشرح)، قالوا يا رسول الله هل لذلـك من علامة أو أمارة؟ قـال: (الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت)..

انشراح صدر الرسول ﷺ بشق الصدر

طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يشرح صدره عقب تكليفه بأمانة الرسالة إلى فرعون وقومه.. قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه: ٢٤-٢٥) وقد استجاب الله دعاء موسى عليه السلام فقال جل شأنه عقب تمام الدعاء: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝٣٦﴾ (طه: ٣٦)

أما سيدنا محمد ﷺ فقد امتن الله تعالى عليه ابتداء بنعمة انشراح الصدر، وساق القرآن المجيد تلك النعمة على سبيل التقرير والتأكيد فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ (الشرح: ١)

وشرح الصدر لرسول الله ﷺ له عند المفسرين معنيان:

الأول: شق الصدر الشريف وقد جاءت روايات متعددة حول هذا المعنى.. ففي صحيح البخاري بسنده عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ حدثه عن ليلة أسرى به قال: (بينما أنا في الحطيم- وربما قال: في الحجر - مضطجعًا إذ أتاني آت فقدّ-أو فشق- ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي-ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته- أومن قصّه إلى شعرته. فاستخرج قلبي ثم أتيتُ بطستٍ من ذهب، مملوءةٍ إيمانًا، فغُسل قلبي، ثم حُشي ثم أعيد).

وفي صحيح مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فشق عن قلبه واستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلي أمه يعني- ظئره أي مرضعته -حليمة - فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره).

وجاءت روايات عند أبي نعيم في الدلائل تفيد أن شق الصدر الشريف حدث أيضًا قبيل البعثة..

ويرى العلماء أن لكل حادثة من هذه الحوادث الثلاث حكمة، فما كان في زمن الطفولة لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة.

وما كان عند البعثة ليتلقى الوحي بقلب قوي في أكمل حالات الطهر..

وما كان عند الإسراء والمعراج ليتأهب للمناجاة العلوية القدسية..

وقد حاول البعض إنكار هذه الروايات قديمًا وحديثًا، فالمعتزلة قديمًا قالوا: إن تأثير الغسل في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل أثر فيها، كما أنه لا يصح عندهم أن يملأ القلب علمًا بل إن الله تعالى يخلق العلوم في القلب..

وقد نقل ذلك عنهم الإمام الرازى فى تفسيره لسورة الشرح.

وطعن المستشرقون حديثًا فى هذه الروايات ورأوها ضعيفة الإسناد. ودافع عنهم الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه (حياة محمد) وقال: (وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق، وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندًا حين ينكرون من حياة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر فى خلق الله وأن سنة الله لن تجد لها تبديلاً).

وأقول إن الطعن بهذه العموميات لا يفيد شيئًا، فإن قدرة الله صالحة، وإن خوارق العادات مرتبطة بالأنبياء قبل البعثة وبعدها بما يسمى بالإرهاصات والمعجزات والكرامات..

وإن الاستبعاد ليس دليلاً على عدم الوقوع، فكم من أشياء استبعدناها بالأمس ووقعت اليوم.

فالمدار فى القبول على صحة النقل، واستقر لدى علماء المسلمين أن كل ما صح نقلا وجاز عقلا وجب قبوله..

انشراح صدر الرسول ﷺ بعلوم القرآن

المعنى الثانى لشرح صدر الرسول ﷺ هو ما حباه الله تعالى به من العلم الشريف والتكريم العظيم والعبادة الخالصة المخلصة.

وعلم رسول الله ﷺ يرتكز أساسًا على القرآن المجيد، فإن نعمة النعم على سيدنا محمد ﷺ هى نعمة النبوة والاصطفاء بالرسالة والوحى بالقرآن.. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (النساء: ١١٣)

فالرسول ﷺ أوتى القرآن ومثله معه وهوالسنة، وتعلم الرسول من لدن العليم الخبير ما لم يعلمه بشر وما لا يصل إليه إنسان..

وتتضاءل كافة النعم المادية أمام هذه النعمة الكبرى، وتتصاغر كل أموال الدنيا وأعراضها أمام هذا الاصطفاء الإلهى.. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (الحجر: ٨٧-٨٨)

والسبع المثانى هى فاتحة الكتاب لأنها تثنى وتكرر فى كل صلاة؛ وعظمة القرآن فى إعجازه، واشتماله على علوم الأولين والآخرين، وهدايته للخلائق أجمعين، وبقائه محفوظًا إلى يوم الدين..

ومن حكمة الله تعالى أن نزول القرآن كان منجمًا ومفرقًا تبعًا للحوادث والنوازل والمواقف فيتجدد اللقاء بالوحى ويعظم الرجاء فى الله، ويظل القلب موصولاً بالله..قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ (الإسراء: ١٠٥-١٠٦)

لقد وصل القرآن إلى سيدنا محمد ﷺ كما تلقاه جبريل الأمين عن رب العزة مشتملاً على الحق، لا يزيد كلمة ولا ينقص حرفًا، متضمنًا كل ألوان الهداية لبنى البشر..

ولما كثر لغط المشركين حول تفريق القرآن وتعدد أوقات نزوله وضح القرآن المزيد من الحكمة فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الفرقان: ٣٢-٣٣)

فحكمة تنجيم القرآن وتفريقه فى النزول ذات مقاصد ثلاثة:

١ - تثبيت قلب النبى ﷺ.

٢ - قراءته على الناس فى تمهل وتؤده.

٣ - مواجهة شُبَه المنكرين.

وفى إطار انشراح صدر الرسول ﷺ بالقرآن وعلومه جاء القصص القرآنى الحق يشرح تاريخ الأنبياء وعلاقتهم بأقوامهم، وسنة الله فى الأولين..

قال جل شأنه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (هود: ١٢٠)

وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٣) وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦٢)

فالقصص القرآني هو القصص الحق وهو أحسن القصص..

ولقد انشرح صدر رسول الله ﷺ بنعمة القرآن انشراحًا لا مثيل له، وسعد به سعادة لا يحيط بها الوصف، وظل قلبه ولسانه يضرع إلى الله بالثبات عليه والمزيد منه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٣-١١٤)

انشراح صدر الرسول ﷺ برؤية الآيات

المعنى الثالث من معانى شرح الله صدر رسوله ﷺ: رؤية الآيات التى أظهرها الله تعالى على يدى حبيبه ومصطفاه، وهى آيات تؤكد الحفظ والتأييد والنصرة والتمكين، وتجعل العقل والقلب والنفس والروح فى أنوار الملأ الأعلى..

وهذه الآيات من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها، ويكفى أن نشير إلى أهمها:

فانشقاق القمر آية من آيات الله تربط النفس بالملكوت الأعلى وتدفع العقل إلى تأملات عميقة فى الطبيعة وما وراءها، وتؤكد هيمنة الله وسلطانه المطلق على الكون والكائنات..

وقد أخرج البخارى فى صحيحه روايات عن ابن مسعود وابن عباس وأنس رضى الله عنه ؛ منها أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر فرقتين أو فلقتين حتى رأوا حراء بينهما.

ونبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ تكرر أكثر من مرة، وفى صحيح البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبى ﷺ بين يديه رَكْوة فتوضأ فجهش الناس نحوه فقال ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده فى الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه

كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قيل: كم كنتم" قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

وحنين الجذع من الأمور المشهورة فقد أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه.

وفى رواية فصاحت النخلة صياح الصبى، وفى رواية فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار..

وكان الحسن بن على رضى الله عنه إذا حدث بهذا الحديث يقول: (يا معشر المسلمين، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إلى لقائه فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه).

ولعل من أبرز الآيات وأوسعها معجزة الإسراء والمعراج فإن لها أثرًا كبيرًا فى انشراح صدر الرسول ﷺ فقد وقعت فى العام العاشر من البعثة وهو العام المسمى بعام الحزن نظرًا لوفاة أبى طالب والسيدة خديجة فيه وهما من هما دفاعًا عن رسول الله ﷺ..

فكانت معجزة الإسراء والمعراج بشرى إلهية لرسولنا ﷺ تؤكد عناية الله به ورعايته له، ونصرته لدينه ورسالته وأن هذا الإسلام الحنيف سينتشر فى الآفاق وسيطلع على ما يطلع عليه الفجر..

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

(الإسراء: ١)

وجاءت سورة النجم لتتحدث عن المعراج وتضع الرسول ﷺ في المقام السامي طهرًا ونقاء واصطفاء.. فهو ﷺ مزكى في ذاته كلها وفي منطقه وفؤاده وبصره وفي كافة ما يحيط به ويقع عليه.. قال تعالى:

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ (النجم ١ : ١٨)

وهكذا فإن رؤية الآيات كانت أحد أسباب انشراح صدر الرسول الكريم.

انشراح صدر الرسول ﷺ بثناء الله عليه

المعنى الرابع من شرح الله تعالى لصدر رسوله ﷺ: بما منحه من فضل، وما حباه به من تكريم وما خصه به من منزلة..

ويتمثل ذلك في وجوه منها:

١ - ثناء الله تعالى على رسوله الكريم ﷺ.

٢ - قسم الله تعالى بعظم قدر رسول الله ﷺ.

٣ - قسم الله تعالى على عظم قدر رسول الله ﷺ.

٤ - إخبار الله تعالى بعظم قدر رسول الله ﷺ.

ولتفصيل ذلك نقول:

أثنى الله على سيدنا محمد ثناء عظيمًا في القرآن المجيد فهو ﷺ أنفس الناس وأعلاهم قدرًا، وهو واحد من البشر ولكن الله اصطفاه واجتباه وجعله خير خلق الله. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة: ١٢٨)

فقد قرأ الجمهور بضم الفاء ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وقرأ البعض بفتح الفاء ﴿مِّنْ أَنفَسِكُمْ﴾

وكلتا القراءتين لها دلالة على عظم قدر رسول الله ﷺ، فالرسول ﷺ على قراءة ضم الفاء واحد من الناس يعرفون نسبه

وصدقه وأمانته وعفافه، وقد حمله الله رسالة إلى العالمين فهو ﷺ يؤديها بالصدق والأمانة المشهودة.. على حد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٥: ١٦)

ولتأكيد هذا المعنى ووضوحه وقف الرسول ﷺ على الصفا فى أول لقاء للدعوة على الملأ من قريش وهتف قائلاً: (يا صباحاه) فاجتمعوا إليه فقال: (يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد المطلب) فلما اجتمعوا إليه قال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى؟) قالوا ما جربنا عليك كذبًا قط، قال: (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد)، فقال أبو لهب: تبا لك أما جمعتنا إلا لهذا. ثم قام فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١).

فانظر معى إلى براعة الاستهلال ولباقة العرض وبلاغة الحوار، وتأمل معى كيف استنطقهم بصدقه وألزمهم بتصديقه..

أما قراءة فتح الفاء (من أنفسكم) فلا شك أن سيدنا محمد ﷺ سلالة الأطهار وسليل الكرام والجامع لصفات الكمال البشرى كله..

ويكفى أن نسوق هذين الحديثين، ففى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم) وفى مسند الإمام أحمد قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: (من أنا؟) قالوا: أنت رسول الله. قال: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه، وجعلهم فريقين فجعلنى فى خير فرقة، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة، وجعلهم بيوتًا فجعلنى فى خيرها بيتًا، فأنا خيركم بيتًا وخيركم نفسًا).

هذا ولقد أثنى الله على رسوله ومصطفاه ثناء عظيمًا فقرن طاعته بطاعة رسوله ﷺ فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)، وجعله رحمة للعالمين فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وسماه نورًا فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (المائدة: ١٥) ورفع ذكره فى الأولين والآخرين فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ (الشرح: ٤)

انشراح صدر الرسول ﷺ بعظم قدره

انشرح صدر رسول الله ﷺ بمخاطبة مولاه له مخاطبة الود والحب والصفاء..

١ - فقد أقسم الله تعالى بعظم قدره ﷺ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الحجر: ٧٢) فهذا قسم بحياة رسول الله وعمره، والله تعالى يقسم بما شاء على ما شاء إظهارًا لدلائل قدرته وبدائع صنعه وعظيم مخلوقاته.

وفي هذا الإطار أقسم الله تعالى بمعجزة الرسول الكبرى وهي القرآن العظيم فقال: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ وقال: ﴿قَ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ وقال: ﴿ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ وأقسم الله تعالى ببلد رسول الله ﷺ وموطنه فقال: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ وقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ والمراد بالبلد هنا مكة المكرمة. فقد كرمها الله تعالى بالبيت العتيق وبالنبي الصادق الأمين..

٢ - إذا كان الله تعالى قد أقسم بعظم قدر رسوله الكريم فإنه سبحانه قد أقسم أيضًا على عظم قدر هذا النبي الكريم.. ونقرأ على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

﴿وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾
فالله يقسم بالضحى والليل أى بالنور والظلمة وبالزمان بأجمعه أن محمدًا ﷺ فى محل التكريم الأرفع من الله عز وجل، فمستقبله ﷺ فى الحياة الدنيا خير من حاضره فى بدء العهد المكى، وهذا وعد إلهى بالنصر والظفر والتمكين للدعوة المحمدية حتى تطلع على مايطلع عليه الفجر. ثم إن آخرة محمد ﷺ يوم القيامة خير من دنياه فهو صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود والحوض المورود..

٣ - وإذا كان الله تعالى قد أقسم بعظم قدر رسول الله ﷺ، وأقسم على عظم قدر رسول الله ﷺ فإنه سبحانه قد أخبر بعظم قدر رسول الله ﷺ. وذلك فى ميثاق النبيين وبشرى الأنبياء، قال الله تعالى:
﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٨٢﴾ (آل عمران: ٨١-٨٢)
أليس هذا قدرًا عظيمًا لسيدنا رسول الله ﷺ ينشرح به صدره وتسمو به نفسه ويمتلىء قلبه نورًا وهدى..؟!!

الرسول الشاهد والأمة الشهيدة

- أول المسلمين
- ميثاق النبيين
- الشافع المشفع
- خير الشهداء
- أمة البلاغ
- السنة الحق
- تصديق الأنبياء

أول المسلمين

وصف الله تعالى سيدنا محمد ﷺ بأنه شاهد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ (الأحزاب: ٤٥). ووصفه بأنه ﷺ شهيد في قوله جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) فالرسول ﷺ شاهد بالوحدانية انطلاقًا من قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨). وخير العلماء وسيد الأنبياء هو محمد بن عبد الله ﷺ. فقد أقام جانب التوحيد الخالص لله، وأعلى شأنه؛ وجاهد في سبيله. وهو ﷺ أعرف الناس بجلال الله وكماله، فهو أول العابدين وأكملهم، وأول المسلمين وأعظمهم، قال جل شأنه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف: ٨١).

ولم يتحمل أحد ما تحمله رسول الله ﷺ في أدائه لأمانة الدعوة وواجب البلاغ؛ فأوذي في نفسه وأهله وصحبه، وهاجر المسلمون هجرتين إلى الحبشة، وحوصر المسلمون في شعب بالجبل مدة ثلاث سنين أكلوا خلالها أوراق الأشجار، ثم ترك المسلمون جميعاً مكة بما فيها من ديار وأموال بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، واستقر بهم المقام في المدينة

المنورة، وحملوا السلاح صباح مساء دفاعًا عن عقيدتهم وحماية لأعراضهم ودمائهم حتى جاء نصر الله والفتح.

وخلال ثلاث وعشرين سنة بلغ الرسول ﷺ الإسلام قولاً وعملاً. وحكم فعدل، وحقق المجتمع المثالي..

وكان رسول الله ﷺ يستشعر عظم هذه المسئولية، ففي الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: (اقرأ علي) فقلت: يا رسول اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال ﷺ: (نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري)، فقرأت سورة النساء حتى أتيت هذه الآية (٤١):

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

فقال ﷺ: (حسبك الآن) فإذا عيناه تذرفان..

ميثاق النبيين

والرسول ﷺ شهيد بمعنى مشهود له بالرسالة والنبوة في رحم الزمان وعمق التاريخ.. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (آل عمران: ٨١-٨٢).

وهذا الميثاق له معنيان: ميثاق أخذه الله من النبيين أو ميثاق أخذه الله للنبيين.

وعلى الاتجاه الأول يكون المعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين، كي يصدق بعضهم بعضًا، حتى تصل الرسالة إلى ختامها ببعثة محمد ﷺ، فكل نبي لا ينافس أخاه ولا ينازعه، وإنما هم يكملون الرسالة الإلهية للبشر كل في زمانه ومكانه، وهم لبنات بناء عال، وصرح مشيد يشد بعضه بعضًا.

قال ﷺ - في الصحيح - : (مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه إلا موضع لبنة فيه، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)..

وعلى الاتجاه الثاني يكون المعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق من الأمم بتصديق كل نبي مؤيد بالمعجزة يواصل المسيرة المؤمنة في الهدى والرشاد.. ولقد دعا الأنبياء أقوامهم إلى الإيمان بمن يليهم، وضمنوا الميثاق كتبهم ووصاياهم لأممهم، حتى تظل المعالم واضحة يتوارثها الأجيال سائرين في ركب الإيمان المتجدد..

وعلى كلا الاتجاهين يتحتم على أهل الكتاب الإيمان بالرسالة لمحمد ﷺ وفاء للعهد، والتزامًا بالميثاق، فهو مصدق لما معهم: ومؤيد بالمعجزة، وداع إلى الحق وصراط مستقيم..

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم

مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ (المائدة: ١٥-١٦) وفي صحيح مسلم قال ﷺ (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار) وفي حديث آخر: (لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى بن عمران حيًا لما وسعه إلا اتباعي).

الشافع والمشفع

والرسول ﷺ شهيد يوم القيامة بمعنى أنه حاضر لمواقفها، ساع لإزالة الشدة، شفيع لفصل الخطاب، وذلك حين يخرج الناس من قبورهم ويساقون للحشر وتعتريهم أهوال تجعل الولدان شيبًا، فيسعى الناس إلى الأنبياء يطلبون شفاعتهم إلى الله عز وجل كي يبدأ الحساب، فيعتذر كل نبي بدءا بآدم عليه السلام ومرورًا بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، كل واحد يقول: نفسي نفسي، إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله..

وأخيرًا يصل الناس إلى محمد ﷺ ويقولون- كما جاء في الصحيح-: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغنا؟!

يقول ﷺ: (فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي، ثم قال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع):

والشفاعة تكريم للشفعاء وبيان لمنزلتهم عند الله وليس للشفعاء من الأمر شيء ولذا فإن سيد الشفعاء هو سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد ﷺ، فهو صاحب الشفاعة العظمى، وهو صلى الله عليه وسلم أول شافع أى طالب للشفاعة، وأول مشفع أى مقبول الشفاعة وهذا هوالمقام المحمود الذى تحمد الخلائق فيه سيدنا محمداً ﷺ.

خير الشهداء

ثم إن هناك معنى آخر لمفهوم وصف الرسول ﷺ بأنه شهيد، فقد جاهد الرسول ﷺ في الله حق جهاده، وحرص على الشهادة فى سبيل الله وحث أمته عليها نصرة للحق ودفاعاً عن المقدسات وحماية للأعراض وصيانة للدماء، وفى صحيح الحديث قال ﷺ (تضمن الله لمن خرج فى سبيله، لا يُخرجه إلا جهاد فى سبيلى، وإيمان بى، وتصديق برسلى، فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا مانال من أجر أو غنيمة. والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم، وريحه ريح مسك. والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى. والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل).

وشاء الله أن يكون لرسوله نصيب فى الشهادة، ففى غزوة خيبر قدمت له ﷺ زينب بنت الحارث اليهودية شاة مسمومة انتقامًا لأهلها الذين قتلوا فى فتح خيبر، ودست سما كثيراً فى ذراع الشاة لأنه أحب الأعضاء إلى رسول الله ﷺ.

ولما أخذ الرسول مضغة من الذراع أطلعه الله على ما فعلته المرأة فلم يسغ المضغة،وكان معه بشر بن البراء فأساغ لقمته فمات.

وجمع الرسول ﷺ اليهود وقال لهم: (ما حملكم على ذلك؟) قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك.

ويقال إن الرسول ﷺ عفا عن المرأة أولاً مقدرًا حالتها النفسية فلما مات بشر اقتص منها..

وظل أثر هذه الأكلة يعاود رسول الله ﷺ حتى إن أنس بن مالك كان يقول: ما زلت أعرفها فى لهوات[1] رسول الله أى فى تغير لونها أو نتوء فيها.. وعاش الرسول ﷺ بعدها ثلاث سنوات، فلما حضرته الوفاة قال للسيدة عائشة- كما فى صحيح البخارى: (يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر فهذا أوانَ وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم)[2].

ومن هنا رأى الصحابة أن الرسول ﷺ مضى شهيدًا مع ما أكرمه الله به من النبوة.. وهكذا كان رسول الله ﷺ شاهدا وشهيداً، شاهدا لله

(١) لهوات: جمع لهاة موضع فى أقصى سقف الفم.

(٢) أوانَ بالفتح على الظرفية، والأبهر عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

تعالى بالوحدانية والجلال المطلق، ومشهودًا له بالرسالة والنبوة على مدار الأجيال المتلاحقة من بنى البشر، وشاهدا لأهوال القيامة حاضرا لها شفيعًا لأهل الموقف من الأولين والآخرين، وشهيدًا مضى إلى الرفيق الأعلى من أثر سم وضعته امرأة يهودية.

فحظى بما لم يحظ به بشر، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ (النساء: ١١٣).

أمة البلاغ

وانطلاقًا من وصف الرسول الكريم بأنه شاهد وشهيد فإن أمة الإسلام لها من الفضل والكرامة بقدر ولائها لهذا النبى العظيم، فإن الله تعالى يخصها بما خص به نبيه ﷺ ..

فأمة الإسلام شاهدة لله بالوحدانية، ترفع لواء التوحيد الخالص وسط عالم لا يعرف الحق فى العقيدة ولا الخير فى السلوك، فالناس حولنا عبدوا غير الله، وحرفوا ما أنزل الله، وطمسوا معالم الوحى الصحيح وعاثوا فى الأرض فسادًا.

وواجب هذه الشهادة أن نبلغ رسالة الإسلام إلى العالمين، لنوجه العقول التائهة ونوقظ القلوب الغافلة؛ ونفتح الأعين العمى ونشفى النفوس المريضة. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

والوسط ليس أمرًا حسابيًا، وإنما هو الأفضل والأكمل والأشرف، كما يقال: فلان أوسط الناس نسبًا ودارًا، أى أفضلهم، ومنه الصلاة الوسطى أى ذات الفضل والثواب العظيم.

وقد خص الله تعالى الأمة الإسلامية بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وحدثت الروايات أن يهوديًا قال لعمر بن الخطاب: إنكم تقرءون آية فى كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، فقال عمر: وأى آية؟ قال.. اليوم أكملت لكم دينكم.. فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التى نزلت فيها، عشية عرفة فى يوم جمعة، وكلاهما- بحمد الله- لنا عيد.

والأمة الإسلامية مشهود لها بأنها وريثة المجد، ومؤسسة الحضارة، وحافظة قرائح البشر، وهى التى أيقظت أوربا من سباتها وانتشلتها من العصور المظلمة، وكانت مراكز الحضارة الإسلامية فى بغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة وصقلية، النبع الصافى الذى ارتوت منه البشرية.

أمة الجهاد

والأمة الإسلامية شهيدة تتحمل أمانة قيادة الحياة بمنهج الله وتقديم هذا الدين الحنيف عقيدة وسلوكًا، علمًا وعملاً، منهجًا وتطبيقًا، وفى سبيل ذلك تتحمل قذائف الباطل وتتخطى عقبات المبطلين والمفسدين فى الأرض، فسنة المدافعة بين الحق والباطل قائمة إلى يوم القيامة. وليس هناك معركة بغير

شهداء، وليس هناك جهاد بغير تضحيات.. وعندما يقبل المسلمون التحدى فيقينهم أن العاقبة للمتقين وأنها إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة: ١١١)

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (التوبة: ٥٢)

السنة الحق

والأمة الإسلامية شهيدة على أهلها بالحق أحياء وأمواتًا، فالشهادة شرطها العدالة، وأول شرائط العدالة الإسلام، والمسلم يلتزم التزاماً أمينًا بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ (النساء: ١٣٥)

وتفهم شهادة الأمة على أهلها فى حال الموت بالصلاة عليهم وتناقل أعمالهم من خير أو شر فإن ذلك يوجب الجزاء المناسب للعمل..

فمن صلى عليه مائة من المسلمين أو أربعون أو ثلاثة صفوف تقبل الله شفاعتهم فيه، ففي صحيح مسلم.. (ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه).

وفي رواية.. (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه).

وفي حديث رواه الترمذي وأبو داود عن مالك بن هبيرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من مسلم يموت فيصلى عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا أوجب) أي: وجبت له الجنة، وكان مالك إذا استقل أهل الجنازة جزأهم ثلاثة صفوف.

وتتواصل الشهادة في الذكرى الباقية للإنسان بعد وفاته، فالمسلمون ألسنة الحق، وهم شهداء على موتاهم: وفي صحيح الحديث أن أنس بن مالك قال: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا فقال النبي ﷺ: (وجبت)، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا، فقال النبي ﷺ: (وجبت). فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال ﷺ: (هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض).

تصديق الأنبياء

ويأتي معنى أخير للأمة الشهيدة، وهو أن المسلمين شهداء على الأمم يوم القيامة. يشهدون لكل نبي أنه بلغ قومه ونصح أمته وأدى رسالة ربه على الوجه الأكمل..

وذلك حين يقف المشركون والكافرون يوم الحشر الأكبر، ويكذبون على أنفسهم أمام الله عز وجل قائلين ما جاءنا من بشير ولا نذير.. فتكون

أمة محمد ﷺ شاهدة بالحق معلنة أمام الجميع أن نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى وكل المرسلين قد قاموا برسالة التوحيد وألزموا أقوامهم الحجة، ولم يدخروا وسعًا فى إقناع أقوامهم ودعوتهم إلى الحق وطريق مستقيم.

وشهادة المسلمين هذه على الأمم مستفادة من القرآن المجيد الذى جاء بالحق وصدق المرسلين وصحح أوهام البشر فى قضايا الدين والحياة، وساق سيرة الأنبياء منذ آدم عليه السلام وإلى ختام الوحى برسالة سيدنا محمد ﷺ.

وقد جاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى، منها ما رواه البخارى: (يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم).

وهذا يؤكد حقيقة مهمة وهى: لولا محمد ﷺ ما عرف الناس الأنبياء..!!

فإن الأنبياء فى العهد القديم لدى اليهود والنصارى لا خلاق لهم، ويمثلون مرتبة دنيا من البشر، ويرتكبون فواحش ومنكرات، ويقع المسيح عيسى ابن مريم على وجه الخصوص بين عقيدتين متناقضتين فاليهود يعدونه كذابًا مفسدًا، والنصارى يعبدونه إلهًا أو ابن إله.. وجاء الإسلام فأوجب الإيمان بالرسل جميعًا لا نفرق بين أحد منهم، وجعلهم أسوة حسنة. وحدد شخصيتهم البشرية المصطفاة الخاضعة لله رب العالمين..

وقال جل شأنه فى تحديد واضح جلى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا

دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

(النساء: ١٦٣ : ١٦٥)

إن وصف أمة الإسلام بأنها شاهدة وشهيدة على الأمم وصف له تبعاته وتكاليفه، وهو يوجب علينا اليوم- كما أوجب بالأمس، وكما يوجب غدًا- أن نكون أهلا لهذا الدين الحنيف وأن نقدم نماذج الهداية الإسلامية فى حركة الحياة المثلى وبناء الحضارة الرشيدة.

وإن عالم اليوم الذى تصارعت فيه القوى والمذاهب، ووصل إلى درجة التشبع المادي الرخيص أصبح يتلهف على عقيدة تؤازر العقل الراشد وتهب السعادة للنفس الإنسانية، وتتسامى بعواطف الإنسان وغرائزه إلى آفاق الملأ الأعلى..

ولن تكون تلك العقيدة إلا عقيدة الإسلام الذى ختم الله به الرسالات وأتم به الدين..

وعلى رغم العداء المعلن فى المؤسسات والحكومات الصليبية فإن قادة الفكر وعامة المواطنين يواصلون مسيرة الزحف نحو الإسلام.

فهناك فلاسفة وسياسيون وعلماء يدخلون الإسلام كل يوم فى مشارق الأرض ومغاربها وتنطق قلوبهم وألسنتهم بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وصدق الله حيث يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ (الفتح: ٢٨)

ذكرى ميلاد رسول الله ﷺ

- احتفال الله تعالى بنبيه محمد ﷺ
- احتفالات المسلمين
- الاحتفال شرف
- الاحتفال حب
- الاحتفال سعادة
- الاحتفال اقتداء
- الاحتفال عهد وميثاق
- الصلاة على رسول الله ﷺ

احتفال الله تعالى بنبيه محمد ﷺ

لقد احتفى المولى سبحانه بنبيه محمد ﷺ، وكرمه أعظم تكريم وفضله تفضيلا، ومنحه ما لم يمنح أحدًا من العالمين.

لقد منحه الجائزة الكبرى، وجعل معجزته كتابًا خالدًا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتحدى به الثقلين، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (البقرة: ٢٣)

ولأول مرة فى تاريخ الأنبياء تلتقى الرسالة والمعجزة على شىء واحد، فإن رسالة محمد ﷺ هى القرآن المجيد، وإن معجزته هى القرآن المجيد.. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ (النساء: ١١٣)

وقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت: ٥١)

ولقد فتح الله على رسوله خزائن فضله بلا حدود، وحقق آماله كلها، فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، وظهر الإسلام على الدين كله.. ونزل قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ (الضحى: ٥).

واستقبل المولى سبحانه نبيه محمدًا ﷺ فى الملأ الأعلى، وحشد له الأولين والآخرين وطاف به فى أرجاء الملك والملكوت، وجمع له الماضى والحاضر والمستقبل فى لحظات روحية تخطت حجب الزمان والمكان، فكان الإسراء من مكة إلى بيت المقدس وكان المعراج من بيت المقدس إلى السموات العلا، إلى سدرة المنتهى، إلى حيث شاء العلى الأعلى.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ (النجم: ١٣-١٨)

وعندما يبعث الناس من قبورهم ويساقون إلى المحشر، وتتوالى الأهوال والشدائد، ويتمنى الناس الانصراف ولو إلى النار، يتلفتون بحثًا عمن يشفع لهم عند الواحد القهار، فيذهبون إلى آدم وإلى نوح وإلى إبراهيم وإلى موسى وإلى عيسى، وكلهم يقولون نفسى، نفسى، فيذهب الناس إلى سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين فيأتى تحت العرش ويخر ساجدًا، ويفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه ثم يقال له: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع.

احتفالات المسلمين

يتخذ المسلمون اليوم للاحتفال بالمولد النبوى الشريف ألوانًا واتجاهات شتى.. فالبعض يجعل الاحتفال ملهاة بالمآكل والمشارب وحفلات السمر والغناء وسياحة العبث ونزهة الفجور، مقلدين فى ذلك عادات مرذولة لشعوب لا تؤمن بالله واليوم الآخر.. ويصدق فى هؤلاء قول الله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ (الأنعام: ٧٠)

وهناك فريق آخر يجعل للاحتفال طقوسًا وعبادات وشعائر، ما أنزل الله بها من سلطان، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا.. ويصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (الشورى: ٢١)

وفريق ثالث يجعل الاحتفال مؤتمرات تقام وتنفض، وقصائد عصماء، وخطبا رنانة، ويقف عند هذا الحد.. ويظل الجميع سادرا فى غيه، غافلاً عن رسالته، بعيدًا عن جوهر الدين..

ونحن ندعو أمتنا أن يكون احتفالها بمولد الرسول الهادى البشير مظهرًا للحب، واكتسابًا لشرف الولاء، وعهدًا وميثاقًا على حسن الاقتداء، واستمرارًا للدعوة، وشوقًا إلى الجنة والغنيمة برضا الله سبحانه وتعالى..

ولا يتحقق ذلك إلا بالاستمساك الدائم بمنهاج الدعوة الإسلامية ودستورها الخالد وكتابها المعجز، وإقامة الحياة وبناء الفرد والمجتمع على هدى الوحى المحمدى.. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (يوسف: ١٠٨)

إن أمة الإسلام فى معترك الحياة المعاصرة فى أمس الحاجة إلى تأكيد شخصيتها وتعميق هويتها والتفافها حول ذاتيتها التى لا تعرف إلا الإسلام-فى صفاء عقيدته وكمال تشريعه..

إن الناس حولنا ينحتون عوامل وهمية تجمعهم، ويتعلقون بأوهى من بيت العنكبوت، وقد حبانا الله بأواصر أرسخ من الجبال، ووشائج أبقى من الزمن، وصلات أعرق من التاريخ، وروابط هى العروة الوثقى.. قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (لقمان: ٢٢)

الاحتفال بالمولد النبوى شرف

جرى عرف الناس أن يجعلوا من احتفالاتهم تكريمًا للمحتفى به وتشريفًا له..

والأمر بالعكس فى احتفالات المسلم بالمولد النبوى الشريف، إن المسلم يحظى بالشرف وتغمره السعادة وينالة الرضا عندما يحتفل برسول الله ﷺ.

فالحديث عن رسول الله ﷺ وأخلاقه ورسالته ودعوته - شرف للمتحدث والمستمع، وشرف للكاتب والقارئ، وشرف للدنيا كلها..

فإن رسول الله ﷺ أفضل الرسل وخاتم الأنبياء وسيد البشر، فمحمد ﷺ هو الإنسان الكامل، رفع الله ذكره فى العالمين، فلا يذكر الله تعالى إلا ويذكر معه محمد رسول الله، ولا يقبل الله إيمان أحد إلا إذا قرن الشهادة بالرسالة لسيدنا محمد ﷺ بالشهادة بالوحدانية لله رب العالمين..

ومن عجب أن فى مشروعية الأذان للصلاة تأكيدًا لهذا المعنى وتوضيحًا له، وإعجازًا له حكمته البالغة..

فإن الأذان لا ينقطع فى أرض الله على مدى اليوم والليلة، فما من لحظة إلا وفيها أذان يرفع فى مكان مّا بالتكبير لله سبحانه والشهادة له بالوحدانية ولسيدنا محمد بالرسالة..

ولا تمر صلاة إلا وفيها الدعاء للنبى ﷺ والتسليمُ عليه، وفى ذلك شرف للمصلى وفضل إلهى عليه..

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ (الأحزاب: ٥٦)، وقال ﷺ: (من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات ورفع له عشر درجات)(رواه أحمد والنسائى والحاكم بإسناد صحيح)

وجاء رجل فقال: يا رسول الله إنى أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتى؟ قال ﷺ: (ما شئت) قال الرجل: الربع، قال ﷺ: (ما شئت وإن زدت فهو خير)، قال الرجل: الثلث، قال ﷺ: (ماشئت وإن زدت فهو خير)، قال الرجل: النصف، قال ﷺ: (ماشئت وإن زدت فهو خير) قال الرجل: الثلثين، قال ﷺ: (ماشئت وإن زدت فهو خير) قال الرجل: يا رسول الله أجعل صلاتى كلها لك - أى دعائى-، فقال ﷺ: (إذا تكفى همك ويغفر ذنبك) (رواه أحمد والترمذى وقال: حسن صحيح).

الاحتفال بالمولد النبوى حب

إن احتفال المسلم بمولد النبى ﷺ ليس احتفالاً تقليديًا يقوم على الاجتماع والتفرق أو على مقالات وأشعار وخطب تذهب أدراج الرياح.. فتلك هى احتفالات الناس فى اتجاهاتهم المادية وذكرياتهم الدنيوية.. إن احتفال المسلم بالمولد النبوى الشريف هو حب للمصطفى ﷺ ، حب يفوق الدنيا كلها، ويقدم على المال والأهل والولد، ويسبق حب النفس والذات، ويتفرد بالقلب والقالب.. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (التوبة: ٢٤)

فحب الله ورسوله لا يقارن بهذه الأشياء كلها، فما قيمة الأهل والعشيرة فى غيبة الدين؟! وما قيمة المال والثروة فى غيبة رضا الله عز وجل؟!

وذات يوم قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للنبى ﷺ : لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا نفسى التى بين جنبّى، فقال له النبى ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه)، فقال عمر: والذى

أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلىّ من نفسى التى بين جنبى.. فقال لـه النبى ﷺ : (الآن ياعمر). (رواه البخارى). أى: الآن ثبت له الإيمان.. فعندما يدرك المرء أن رسـول الله أحب إليه من كل شـىء حتى نفسـه، حينئذ يذوق حلاوة الإيمان وينشـرح صدره بالإسـلام ويطمئن قلبه بالإيمان..

وقد قال رسول الله ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا للـه، وأن يكره أن يعود فى الكفـر كما يكره أن يقذف فى النار) (متفق عليه).

إن حبنا لرسـول الله هو أعظم الحب وأقدسـه، وأكرم الحب وأبقاه، لأنه من الله وفى الله ولله.. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

الاحتفال بالمولد النبوى سعادة

مضى

عرف النـاس أن الحب تضحية، وأن المحب يضحى فى سبيل محبوبه..

لكن حب المسلم لرسول الله ﷺ فوز وغنيمة، وتجارة لن تبور، إننا لا نضحى بشىء عندما نحب رسول الله ﷺ، وإنما نتخلى عن الأهواء الفانية وندع الأمراض النفسية والقلبية، ونترك الفواحش ماظهر منها وما بطن، ونكتسب سمو الأخلاق وطهارة السلوك، وأمن الحياة وسعادة الدنيا والآخرة.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ (الصف: ١٠-١٣)

فانظر إلى آثار حبك لله ورسوله وإيمانك بالإسلام.

إنهـا مغفرة للذنوب، وجنـات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشـر.. إنها نصر فى الدنيا وفتح قريـب وتمكين فى الأرض وإقامة للعدل ونشـر للسـلام وإعلاء للحق.

إن المسلم حين يحتفل بالمولد النبوى الشريف يظهر حبه للرسول الهادى البشير ﷺ، ويقيم علاقاته ويبنى مجتمعه على منهاج الله الذى بلغه رسوله الأمين، ويقدم العهد والميثاق ويجدد الولاء..

وهذا كله ليس تضحية من أجل رسول الله ﷺ لكنها الحياة الكاملة لنا.. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأنعام: ١٢٢)

إن حبنا لرسول الله ﷺ ليس منة عليه ولكنه فضل الله يحبو به من يشاء من عباده قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الحجرات: ١٧)

إن حبنا لرسول الله ﷺ لا يسلبنا أموالنا ولكن يزكيها لنا وينميها ويباركها. قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ (البقرة: ٢٦١)

الاحتفال بالمولد النبوى اقتداء

إن احتفال المسلم بمولد رسول الله ﷺ لا يكفى فيه مجرد الحب العاطفى والميل القلبى، بل إن حقيقة الحب اقتداء بصاحب الذكرى العطرة ﷺ..

وهذا الاقتداء هو فيصل التفرقة بين مراتب الحب وطبقات المحبين، فبقدر الحب يكون الاقتداء.. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (ال عمران: ٣١).

ولله در القائل:

تعصى الإلـه وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعتـه ... إن المحب لمن يحب مطيع

والاقتداء برسول الله ﷺ ليس اقتداء البدعة ولا اتباع الهوى، فإن رسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة بشهادة الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقد أمتدح الله تعالى خلق رسوله فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم: ٤)، وامتدح منهاج دعوته فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى: ٥٢). وجعله نورًا وسراجًا للعالمين

فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

(المائدة: ١٥-١٦)

ومن هنا وجب على المسلم التزام الشرع الحنيف والتسليم لحكم الله والرضا الكامل بكل ما جاء عن الله ورسوله ﷺ.. قال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (النساء: ٦٥)

وكيف يرضى المسلم بقوانين البشر الذين تعتريهم الأمراض، ويقعون فريسة الهوى وتستهويهم الشياطين، وتقصر عقولهم، وتنتهي حياتهم بالموت؟!

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (النور: ٦٣)

الاحتفال بالمولد النبوى عهد وميثاق

جرى العرف أن يكون احتفال الناس ذكرى لموقف مضى أو وفاء لزعيم مات، أو تكريمًا لعظيم..

وليس ذلك واردًا فى احتفال المسلم بالمولد النبوى الشريف فإن الناس يكتسبون الشرف والتكريم من رسول الله ﷺ، وهو حى بيننا بمنهاج دعوته واستمرار رسالته، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (آل عمران: ١٠١). وقال جل شأنه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ (الحجرات: ٧)

إن رسالة الإسلام وصلت إلينا عزيزة كريمة بجهد السابقين الأخيار وبجهادهم، فيجب أن نتحملها بيقين الصادقين، ونسلم الراية لمن بعدنا مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام برزة..

وإن احتفال المسلم بالمولد النبوى الشريف ليس بكاء على أطلال، ولا تذكرا للديار، ولا تمسحًا بالأحجار، وإنما هو تجديد للعهد والميثاق.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (آل عمران: ١٠٢)

وقال جل شأنه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ

بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾
(النحل: ٩١)

إن المسلم حين ينطق بالشهادتين ويعلنها من قلبه على لسانه (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله). يكون قد عاهد الله عهدًا كبيرًا وواثقه ميثاقًا عظيمًا أن يستقيم على الدين ويحافظ على القرآن ويتخذه حكمًا وإمامًا..

ويجب أن نحذر التشبه بأهل الكتاب قبلنا الذين نقضوا العهد وخانوا الميثاق وحرفوا وبدلوا.. قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة: ١٣)

إننا مطالبون بالتوبة وعزيمة الإخلاص والتشمير عن ساعد الجد وبذل النفس والنفيس حماية للقيم العليا التى جاء بها رسول الله ﷺ ومضى شهيدًا عليها..

وتلك هى الأمانة الكبرى التى نتحملها جميعًا.. قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الزخرف: ٤٣-٤٤)..

الصلاة على رسول الله ﷺ

(أ) الصلاة على النبى ﷺ ومدخلها فى الدعاء المستجاب:

الدعاء مخ العبادة أو هو العبادة كما ورد فى بعض الآثار، وذلك لأنه موقف ضراعة وخشوع وحاجة أمام صاحب الملك والملكوت، الملك الوهاب، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير.

وللدعاء آداب عامة كثيرة: منها ما يتعلق بمضمون الدعاء نفسه كألا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم. ومنها ما يتعلق بالداعى نفسه كأن يكون مطعمه حلالا، ومنها ما يتعلق بوقت الدعاء كما فى ساعة الجمعة. ومنها ما يتعلق بكيفية الدعاء.

وهنا يهمنا أن ننبه إلى فضيلة الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وأهميتها فى الدعاء ومدخلها فى قبوله واستجابته.

فقد أخرج أبو داود والترمذى وصححه أن النبى ﷺ قال: (إذا صلى أحدكم (أى دعا) فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، وليصل على النبى ﷺ، وليدع بعد بما شاء).

وفى حديث آخر عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه – رواه الترمذى وحسنه – قال: كنت أصلى (أى: أدعو) والنبى ﷺ وأبوبكر

وعمر معه، فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم الصلاة على نبيه ثم دعوت لنفسي، فقال النبي ﷺ : (سل تعطه).

فالأدب في الدعاء – كي يكون أرجى للقبول – على هذه الكيفية يبدأ بحمد الله والثناء عليه سبحانه بما هو أهله ثم الصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، ثم يدعو الإنسان بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة..

بل ورد ما هو أبعد من ذلك. فكثرة الصلاة والسلام على إمام الأنبياء وسيد ولد آدم، وملازمتها قد تغنى عن الدعاء نفسه وتجعل المرء في صفاء روحي وتكفيه ما أهمه من أمر معاشه ومعاده.. ولله در القائل:

إذا أنت لازمت الصلاة على الذى ... صلى عليه الله في الآيات
وجعلتها وردا عليك مؤكدًا ... لاحت عليك دلائل الخيرات

وحول هذا المعنى ورد حديث شريف رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وغيره أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: (ما شئت)، قال: الربع، قال: (ما شئت، وإن زدت فهو خير لك) قال: النصف، قال: (ماشئت وإن زدت فهو خير لك) قال: الثلثين. قال: (ما شئت وإن زدت فهو خير لك) قال: أجعل لك صلاتي كلها (أي: دعائي)؟! قال ﷺ : (إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك)..

وقد ورد هذا الأدب فى كيفية الدعاء فى مواضع أخرى علمها الرسول ﷺ أصحابه، فهناك دعاء مستحب عند دخول المسجد والخروج منه يبدأ أيضًا بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ..

ففى الحديث الصحيح: (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى ﷺ وليقل اللهم افتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل اللهم إنى أسألك من فضلك).

وعند سماع المؤذن ورد مثل هذا المعنى: فقد خرج مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة). اللهم صلى وسلم وبارك على هذا النبى الكريم..

(ب) الحكمة فى اقتران الصلاة على سيدنا محمد ﷺ بالصلاة على سيدنا إبراهيم عليه السلام:

أفضل الصيغ فى الصلاة والسلام على سيدنا محمد هى الصيغة الإبراهيمية التى تقال فى آخر التشهد: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد).

وقد اهتم القرآن المجيد كثيرًا بالربط بين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فحكم بأن محمدًا ﷺ وأمته أولى الناس بإبراهيم فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (آل عمران: ٦٨)

وجعله أبا للمسلمين فقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الحج: ٧٨).

وفرض الله على الأمة المحمدية التوجه في صلاتها إلى الكعبة المشرفة بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٤) وجعل الله الحج إلى الكعبة تلبية لنداء إبراهيم عليه السلام - فريضة وركنًا من أركان الدين فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧)

وأولاً وأخيرًا فإن سيدنا محمدًا ﷺ هو دعوة أبيه إبراهيم في قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٩) وإجماع المفسرين على أن هذا الرسول الذي دعا به وله إبراهيم الخليل إنما هو سيدنا محمد ﷺ، فلم يبعث الله نبيًا إلى العرب منذ إسماعيل عليه السلام.

المبحث الثالث

المحبة لله وفى الله

- علاقة اجتماعية نبيلة
- حلاوة الإيمان
- المرء مع من أحب
- ثواب المحبة لله
- إفشاء السلام يعمق المحبة
- النصيحة حب
- التزاور فى الله

١ ـ علاقة اجتماعية نبيلة

للناس

علاقات اجتماعية تتوزعها أغراض شتى، وتحركها أهداف متعددة، فمن الناس من يقيم علاقته رياء أو نفاقًا أو خديعة أو تحقيقًا لمآرب.. إلا أن هذه العلاقات المرتبطة بالمادة ومتع الحياة الرخيصة لاتلبث أن تنهار، وتظهر النوايا الخبيثة، ولله در القائل:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وحين تظهر الخفايا تنقلب الصداقة إلى عداوة، وينقطع المعروف ويتربص كل منهما بالآخر.. ولا يبقى إلا ما كان لوجه الله خالصًا، ولا يدوم إلا ما صدر عن قلب طاهر نقى، فإن الصلة الوحيدة التى تبقى مع متقابلات الحياة هى المحبة لله وفى الله، وتعنى أن يجتمع الناس على طاعة الله ليس لهم غرض دنىء ولا هدف خفى ولا غاية حقيرة، فالطاعة تجمعنا والمعصية تفرقنا..

وتلك العلاقة القائمة على المحبة لله وفى الله تبقى مع الصحة والمرض، وتبقى مع الغنى الفقر، وتبقى مع إقبال الحياة وإدبارها.. ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (الزخرف: ٦٧)

فجميع الصداقات تنقلب إلى عداوة إلا صداقة التقوى وعلاقة المحبة لله وفى الله..

ومن هنا فإن المسلم حريص على انتقاء الصديق فإن المرء على دين خليله، وقد قيل فى الحكم: (أخبرنى من تصادق أخبرك من أنت).

وفى توجيه نبوى كريم يقول ﷺ: (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة؛ ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة) (متفق عليه).

فمجالسة الصالحين لا تنفك عن خير، ومجالسة الأشرار لا تنفك عن معصية فماذا نختار لأنفسنا؟

إن الجليس الصالح يذكرنا بالله ويعيننا على أمر ديننا ودنيانا ويتعاون معنا على البر والتقوى ويصلح ذات بيننا ويخلص فى النصيحة ويرشد إلى كل خير.. والجليس السوء يجرنا إلى الفحشاء والمنكر والبغى، ويدفعنا إلى الجريمة والمعصية والخطيئة، وأقل مايمكن أن يصيبنا من مجالسة الأشرار هو القيل والقال وسوء السمعة.. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنعام: ٦٨)

٢ ـ حلاوة الإيمان

لقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نستشعر حلاوة الإيمان فقال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب

إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار) (متفق عليه).

إن المحبة لله وفى الله تبدأ بحب الله ورسول حبًا يملك على المرء قلبه وقالبه، بحيث يستشعر المرء الهوى والمزاج والهناء والسعادة فى طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ، فإن الحب لله ورسوله ليس موقفًا عاطفيًا مجردًا، وإنما هو موقف اتباع وتسليم. ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١)، وقال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به)[1].

وفى موقف مقابلة بين حبين يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (التوبة: ٢٤)

فلا حب يعلو على حب الله ورسوله ﷺ..

وما عدا الله فهو أثر من آثار، ونعمة من آلائه فكيف نلهو بالنعمة عن المنعم وبالأثر عن المؤثر؟!

(١) ذكره الإمام النووى فى الأربعين وقال: حديث صحيح رويناه فى كتاب الحجة.

وانطلاقًا من الحب لله ورسوله تأتى محبة المؤمنين، فإن الرابطة المقدسة التى تجمع بين المؤمنين هى رابطة الحب، فهى أسمى الروابط وأبقاها وأخلدها.. ولهذا قال رسول الله ﷺ : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى). وكانت علاقة الحب لله وفى الله هى التى جمعت الأنصار والمهاجرين، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحشر: ٩)

وإذا تحقق للإنسان حب الله ورسوله ﷺ ، وأحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، وحينئذ يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار. فإن المؤمن يدرك عمق المأساة وخطر الجريمة التى تقع فى دنيا الناس حين تقسو قلوبهم ويجترءون على المعصية..

إن أجل النعم أن نستشعر حلاوة الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

(الحجرات: ٧-٨)

٣ ـ المرء مع من أحب

المثل

العليا ذات أهمية قصوى فى حياة البشر، والقدوة الحسنة ذات أثـر بالغ فى التربية الإنسـانية، ولكى نعرف مجد الأمـم وطمـوح الأفراد علينـا أن ننظر إلى ما يتخذونـه من مثل وما يقتفون أثره من قدوة..

فـإذا اتخذت الأمـة أو الأفراد مثلها العليا من رجال لهم شـرف الحيـاة وشـرف الممـات، ورجال لهـم تضحيـات المخلصين وبذل الصادقـين، ورجال لهم طهارة القلـب ونجابة العقل وصالح العمل.. فإن مستقبلا زاهرا لهذه الأمة أو هؤلاء الأفراد..

وإذا كانت المثل هزيلة، والقدوة خبيثة، والسـلوكيات طائشـة، وحيـاة الناس فـى لهو، وكبراؤهـم بلا خلق أو فضيلـة، فتلك أمة بلامستقبل، وذلك جيل بلا غد، وسحقًا لهذا المجتمع..

ويحدثنا أنس بن مالك وهو خادم رسـول الله ﷺ، خدمه عشـر سنين، فما قال له الرسول ﷺ أف قط، ولا لشىء صنعه لم صنعته، ولا لشـىء تركه لـم تركته.. يقول أنس: بينما أنا ورسـول الله ﷺ خارجين من المسـجد فلقينا رجلاً عند سدة المسجد، فقال: يا رسول الله متى السـاعة؟ قال الرسـول ﷺ: (ما أعددت لها) فكأن الرجل اسـتكان ثم قال: يا رسـول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صدقة ولكنى أحب الله ورسـوله، قال ﷺ: (فأنت مع من أحببت)، قال

أنس: فما فرحنا فى الإسلام فرحًا أشد من قول رسول الله: (أنت مع من أحببت) فأنا أحب النبى وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم.. (رواه مسلم).

فنية المؤمن أبلغ من عمله، ومن سار على الدرب وصل، فقد أحب الرجل الله ورسوله حبًا جمًا، والتزم بالطاعة بلا تفريط، لكنه قد لا يبلغ المرتبة العليا فى الوفاء بتلك الطاعة، وهنا يصل به الحب إلى ما لم يصل به العمل.. فالمرء مع من أحب.

ويسعد المسلم بهذه البشرى كما سعد أنس، ويفرح الفرح كله، ويجاهد نفسه، وعلى الله قصد السبيل..

وفى صحيح البخارى أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله كيف ترى فى رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم. فقال ﷺ: (المرء مع من أحب).

٤ـ ثواب المحبة لله

هناك وعد إلهى بأن حبيب الله يحبه الناس، وأن المرء الذى يقيم علاقاته الاجتماعية بصفاء ونقاء وطهر تحفظه عناية الله ورعايته وتحفه الملائكة، ويظل موفقًا مسدد الخاطر، ملهم القلب والعقل.

وبالعكس فإن الإنسان المتمرد على طاعة الله يكون عدوًا لنفسه ظالمًا لها، بغيضًا إلى الناس، لا يستريح أحد لجالسته، ولا يطمئن إنسان لصاحبته..

وفى صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إنى أحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلانا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه فيبغضه أهل السماء ثم توضع له البغضاء فى الأرض).

ووسط أهوال القيامة وشدائدها تظهر آثار المحبة تكريمًا إلهيًا على رءوس الأشهاد، ففى صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى).

بل إن للمتحابين لله وفى الله منزلة عظيمة تكون محل إعجاب الأنبياء والشهداء، ويتلفت إليهم الخلق جميعًا لمكانتهم من الله عز وجل.. ففى حديث رواه أبو داود، قال رسول الله ﷺ: (إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله)، قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: (قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢).

إن أصحاب هذه المنزلة السامية جمعتهم الطاعة لله، وألف بين قلوبهم الإيمان، وتعالوا فوق العصبية المقيتة وتساموا فوق الماديات الرخيصة..

إن المحبة لله وفي الله تتخطى حجب الزمان والمكان لتجمع الناس على كلمة سواء..

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

(آل عمران: ١٠٣)

٥ ـ إفشاء السلام يعمق المحبة

إن للمحبة لله وفي الله آدابًا تعبر عنها، وتنمي جذورها، وتجعلها أكثر نماء وأبقى ذكرًا وأخلد أثرًا..

من هذه الآداب إفشاء السلام، وفي صحيح مسلم يقول الرسول ﷺ: (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَ لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم).

فالرسول الكريم ﷺ يضع المعالم ويحدد الطريق، فالجنة سلعة الله الغالية؛ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذه الجنة يرثها المؤمنون الصادقون كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى

﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الزخرف: ٧٢)

ولن يتحقق الإيمان إلا بالحب لله وفى الله، وقد قال ﷺ: (لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

ولكى نصل إلى هذه الغاية النبيلة نحتاج إلى إفشاء السلام..

لكن ماذا يعنى إفشاء السلام؟ هل هو مجرد كلمة (السلام عليكم)؟ ما أهونها إذن!!

إن إفشاء السلام له معنى عميق يتغلغل إلى قرار مكين فى القلب الإنسانى، إنه يعنى قلبًا طاهرًا نقيًا تقيًا لا يعرف حقدًا ولا حسدًا ولاضغينة، إنه يعنى الصفح والتسامح والعفو، إنه يعنى الأمن والأمان للناس جميعًا.

هنا يحق لنا أن نقول نحن نسعى لإفشاء السلام وإشاعة الأمن، وتأتى الكلمة بعد ذلك معبرة عن حقيقة يحنو عليها القلب ويعيش الإنسان بها ولها..

وأخرج الإمام أحمد والنسائى قصة طريفة معبرة، فقد قال الرسول ﷺ لأصحابه ذات يوم: (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة)، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال النبى ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبى ﷺ مثل مقالته أيضًا فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فأراد عبد الله

ابن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن يتعرف إلى عبادة هذا الرجل التى جعلته من أهل الجنة، فذهب إلى الرجل وادعى مخاصمة بينه وبين أبيه وطلب من الرجل أن يستضيفه ثلاثة أيام، فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ولم يسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الليالى الثلاث كاد عبد الله بن عمرو أن يحتقر عمل الرجل، فصارحه بما فى نفسه فقال الرجل: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله، فقال عبد الله: هذه التى بلغت بك، وهذه التى لا تطاق..

٦ـ النصيحة حب

من منطلق الحب لله وفى الله تأتى قضية النصيحة ودعوة الخير، فالمسلم حين يدعو إلى الله تعالى ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، إنما يؤكد حبه لأخيه الإنسان فى أسمى صوره وأجل معانيه، فلولا الحب ما دعونا إلى الله ولولا الحب ما كانت النصيحة المخلصة.

وذات يوم أخذ الرسول ﷺ بيد معاذ بن جبل رضى الله عنه وقال: (يا معاذ والله إنى لأحبك ثم أوصيك، يا معاذ: لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) (رواه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح).

انظر كيف أخذ الرسول ﷺ بيد معاذ؟ وكيف قال له: والله إنى لأحبك؟ ليقول له: إنها نصيحة بحب!!.

وجاء فى مسند الإمام أحمد عن أبى أمامة قال: قلت يا نبى الله ما كان بدء أمرك؟ قال: دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام).

هذا وهناك ارتباط آخر بين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فقد جمع بينهما الشبه الخلقى فكان رسول الله ﷺ أقرب الناس شبها بإبراهيم عليه السلام. وفى حديث الإسراء ثبت أن النبى ﷺ قال: (عرض علىّ الأنبياء فإذا مَوسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيته به شبهًا عروة بن مسعود الثقفى، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيته به شبهًا صاحبكم يعنى نفسه، ورأيت جبريل فإذا أقرب من رأيته به شبهًا دحية الكلبى).

وظل هذا التشابه فى الأخلاق والأفعال والصفات، وهذا التلاقى والارتباط بين أبى الأنبياء وخاتمهم، حتى إن الرسول ﷺ عندما جعل المدينة المنورة حرمًا آمنًا كان متأسيًا بإبراهيم الخليل..

ففى الموطأ عن أبى هريرة أنه قال: (كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: اللهم بارك لنا فى ثمرنا، وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مدنا.. اللهم إن إبراهيم

عبدك وخليلك ونبيك، وإنى عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه. ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر).

وفى حديث آخر فى الموطأ: عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال: (هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وأنا أحرم ما بين لابتيها).

وهكذا يجىء الاقتران فى الصلاة على سيدنا محمد بالصلاة على سيدنا إبراهيم تأكيدًا لهذه المعانى كلها..

وهذه هى فلسفة الدعوة إلى الله عز وجل.

وإذا كان رسول الله ﷺ يقول: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). فليست المسألة وقفًا على مآكل ومشارب وملابس، وإنما كما أحب لنفسى الهداية والاستقامة والرشد فأنا أحب ذلك للناس كافة وأحرص على أن أدعوهم إلى الله، فإن أعز المنى فى الإيمان وإن السعادة فى التقوى..

إن الدعوة إلى الله تعالى ليست تسلطًا على رقاب الناس، وليست لعنات تصب عليهم، وليست كهنوتًا أسود يتحكم فيهم..

وكم كان رسول الله ﷺ حريصًا على هداية قومه حتى نزل قوله تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

(الكهف: ٦)

إن الدعوة إلى الله تعالى إنقاذ للداعى والمدعو لكى يعيش الجميع سعداء بدين الله مستبشرين بنعمة الله وفضله فى الدنيا والآخرة..

وفى تشبيه رائع وجميل روى النعمان بن بشير أن النبى ﷺ قال: (مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا).

وصدق الله العظيم إذ يقول على لسان شعيب عليه السلام:

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ (هود: ٨٨)

٧ـ التزاور فى الله

ومن ثمرات المحبة لله وفى الله التزاور، وهو قيمة اجتماعية نبيلة حين يقوم على الأمانة والإخلاص بحيث يصون الزائر عرض أخيه المزور وماله ونفسه، فلايكشف سترا، ولايتبع عورة، ولا يقف موقف ريبة..

وفى حديث رواه مسلم: (أن رجلاً زار أخا له فى قرية فأرصد الله على مدرجته ملكا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لى فى هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا، غير أنى أحبه فى الله، قال: فإنى رسول الله إليك، إن الله قد أحبك كما أحببته فيه).

وفى حديث رواه أحمد عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يروى عن ربه عز وجل: (حقت محبتى للمتحابين فىّ، وحقت محبتى للمتواصلين فىّ، وحقت محبتى للمتباذلين فىّ).

والزائر فى الله يلتزم أدب الزيارة المشار إليه فى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا

فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

(النور: ٢٧-٢٨)

فالمطلوب شرعًا من الزائر أن يستأذن ثلاث مرات، الأولى لإعلامهم أن بالباب طارقًا، والثانية ليتهيئوا، والثالثة ليفتحوا.. ويراعى التراخى بين هذه المرات الثلاث لإفساح المجال لأهل البيت، وينبغى أن تكون مسمعة، ولا يزاد عليه إلا إذا غلب على الظن أنهم لم يتمكنوا من السماع..

وينبغى للمستأذن ألاّ يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره حتى لا تقع عينه على من خلف الباب مباشرة، فإن الاستئذان من النظر - كما ورد بذلك الحديث - أى خشية فجأة النظرة..

فإن أذن له بالدخول دخل أمينًا فى بصره وسمعه، فإن لم يجد أحدًا أو لم يسمح له بالدخول أو لم يجد صاحب الإذن المعتبر شرعًا بأن وجد امرأة لا يصح الخلوة بها أو طفلاً لا يعبر عن أهل البيت فليرجع ولا يسخط على أهل الدار، فإن للناس أعذارًا وإن للبيوت أسرارًا، وخير الناس أعذرهم للناس..

والزائر فى الله ولله يختلف عما يسمى الآن بصديق الأسرة، ذلك الصديق الذى يدخل فى غيبة المحارم، ويجلس مع النساء بلا حياء

وعلى غير ما أحل الله، ويظل يعبث بالأعراض والأموال والأنفس وينسى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ (سورة العلق: ٤)

وينسى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

(المائدة: ٩٩).

المبحث الرابع

حب الشهوات

- تزيين الشهوة
- مفهوم الشهوة
- حب النساء
- حب البنين
- حب الأموال

حب الشهوات

هناك

آية كريمة من كتاب الله تعالى جمعت بين الحب والشهوة، وساقت ذلك فى مقارنة بين شهوات الدنيا وطيبات الآخرة، وحفزت الإنسان كى ينأى عن الدنايا ويسمو إلى معالى الأمور، وتأكدت للمرء أن الدنيا ليست نهاية المطاف للرحلة الإنسانية وأن هناك موعدًا لن يخلف لنعيم لا يبلى وقرة عين لا تنقطع..

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

(آل عمران: ١٤، ١٥)

التزيين

التزيين هو التجميل والتحبيب، والذى زين للناس محبة هذه الأشياء هو الله تعالى، لأنه جل شأنه خلقها ابتداء لمنفعة الإنسان واستخدامها من خلال المنهج الإلهى عمارة للدنيا وزادًا للآخرة..

وقد جاء إضافة للتزيين إلى الله تعالى بمعنى الخلق فى آيات منها:
قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢)
وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ (الكهف: ٧)
والقول بإضافة التزيين هنا إلى الشيطان غير دقيق لأن هذه الأشياء المذكورة فى الآية الكريمة من النساء والبنين والأموال ليست كلها فى إطار التحريم وإنما مرد الحكم الشرعى إلى أسلوب الإنسان فى امتلاك هذه الأشياء والانتفاع بها، فقد يكون مباحًا، وقد يكون قربة إلى الله، وقد يكون حرامًا..
وتزيين الشيطان مقصور على الكفر والمنكر والفحشاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ (الأنعام: ٤٣)
وقال جل شأنه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤﴾ (النمل: ٢٤)
وإذا جاءت آيات قرآنية تضيف تزيين الشر إلى الله تعالى فيكون بمعنى التمكين ومنح القدرة للإنسان على هداية النجدين، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٠٨﴾ (الأنعام: ١٠٨)

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾ (النمل: ٤)

فالله تعالى منح الإنسان وسائل اكتساب الخير والشر كي يتحمل المسئولية ويناله الجزاء ثوابا أو عقابا..

الشهوة

الشهوة هي الرغبة وقد يعبر بها عن الحب بمعنى الميل الشديد فيقال اشتهى الطعام أي أحبه..

وإضافة الحب إلى الشهوة في الآية الكريمة(زين للناس حب الشهوات) يفيد أنهما متغايران، لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه، فالحب إرادة إنسانية. والشهوة فطرة إلهية فإذا أحب الإنسان الشهوة نظر في ذلك، هل هو حب يبيحه الشرع أو يبغضه؟ وقد قال رسول الله ﷺ- في حديث رواه الإمام مسلم-:

وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟! فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.

والبضع-بضم فسكون - يراد به الفرج أو الجماع. فمعاشرة الرجل لحليلته بنية العفاف وطلب الذرية له أجر وثواب، ولما استبعد الصحابة فهم هذا المعنى الشريف لقيامه على لذة الشهوة وفهمهم أن الثواب منوط بما فيه مخالفة للنفس والهوى- أزال الرسول ﷺ استبعادهم

وتعجبهم بإحالتهم إلى أمر واضح مقرر يسلمون به وهو حصول الوزر والعقاب عند ممارسة الفاحشة والزنا، فكذلك يحصل الثواب والجزاء الحسن عند قضاء الشهوة فى الحلال.

وهذه الشهوات السبع المذكورة فى الآية الكريمة (زين للناس حب الشهوات) لها جوانب إيجابية ينبغى الحرص عليها والتطلع إليها والحب لها، وجوانب سلبية ينبغى البعد عنها والسمو عليها والبغض لها..

حب النساء

قدم هذا الحب لأنه أساس الوجود، وبه بدأت الحياة البشرية، فقد خلق الله آدم وحواء وأسكنهما الجنة ثم أهبطهما إلى الأرض لتنتشر الذرية ويمتد التناسل..

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ (النساء: ١)

والإسلام - والإسلام وحده - هو الذى يجعل لحب النساء معنى شريفًا ويضعه فى منزلة سامية، وقال رسول الله ﷺ - كما رواه ابن ماجه -:

(ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرًا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته).

وجعل الرسول ﷺ حب النساء فى مقدمة الحب الشريف فقال - كما رواه أحمد - حبب إلىّ النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة.

فكان حب النبى للنساء إعلانا لشرف الأعراض..

وكان حب النبى ﷺ للطيب إعلانا لطهارة الأبدان..

وكانت قرة عين النبى فى الصلاة إعلانًا للعمق الروحى للإنسان..

إن ممارسة الغريزة فى الإسلام لا تكون إلا بالزواج، وهذا الزواج هو سكينة عاطفية ونفسية للطرفين، وتبقى هذه السكينة لدى المؤمنين الأتقياء بأحد أمرين: هما المودة والرحمة.. والمودة هى خالص الحب، والرحمة هى خالص الشفقة، والزواج يبدأ بالمودة. فإذا فترت المودة لعارض من العوارض استيقظت الرحمة لتجمع الشمل وتقود الأسرة.. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١)

فإن تقطعت الأسباب كلها واستنفدت وسائل العلاج بأجمعها ولم تبق بقية من مودة أو رحمة فالطلاق أعدل الحلول وأحكمها. قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ (النساء: ١٣٠)

لكن الحضارات الأخرى قديمًا وحديثًا تنظر إلى المرأة نظرة حيوانية، وتجعل ممارسة الغريزة هى أسمى ما يسعى إليه الذكر والأنثى بلا ضوابط أو حياء، وما زالت المرأة إلى اليوم تمتهن امتهانًا

أشد من الجاهلية الأولى، فتقدمها وسائل الإعلام عارية أو شبه عارية ترويجًا لسلعة أو دعوة لمنكر..

إن الحضارة الحديثة وضعت المرأة في أقفاص زجاجية أمام واجهات المحال. كما توضع الأحذية ليختار منها ساقطو المروءة وعاهرو السلوك، إن الحضارة الحديثة ساقت المرأة عارضة للأزياء تكشف أكثر مما تغطى من جسدها وعورتها، وتتحرك كالآلة الصماء، تحسب حركتها وتقاس مشيتها وتدفع إلى الأمام وإلى الخلف في حركة هستيرية فاقدة للوعي والكرامة..

إن الحضارة الحديثة قدمت المرأة على خشبة المسرح كالكلب اللاهث تتأوه وتتكسر وتنثني. تتسول جنسيًا وسط ذئاب بشرية يقبلون يدها أول الليل ويطئونها بنعالهم آخر الليل..

إن الحضارة الغربية الحديثة أباحت الخليلات والأخدان[1] والسفاح والشذوذ، حتى أصبح الإنسان أحط دركة من حيوان الغابة، فإن الأنثى من الكلاب وسائر الحيوانات لا تمارس الغريزة إلا للنسل فقط وفي مواسم خاصة ولم نسمع أن هناك شذوذًا في عالم الحيوان..!!

إن لحب النساء في الإسلام ضوابط وأخلاقيات تتناسب مع كرامة الإنسان حتى يكون الحب طاهرا عفيفا..

فعلاقة الرجل بالمرأة الأجنبية في الإسلام قائمة على الحياء، والحياء خير كله، فلا تبرج ولا سفور ولا خضوع بالقول ولا تخنث،

(١) الخدن: الصديق في السر للذكر والأنثى.

ولا خلوة ولا مؤانسة حديث، قال الله تعالى-في خطاب عام وتوجيه شامل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ (الأحزاب: ٥٩)

وفي صحيح الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (لا يخلون رجل بإمراة إلا مع ذى محرم. فقام رجل وقال: إن امرأتى خرجت حاجّةً وقد اكتتبت فى غزوة كذا فأمره الرسول ﷺ أن يرجع ويحج مع امرأته.

والحب بمعنى ما استقر فى القلب من شعور معين نحو الفتاة أوالفتى لا يتعلق به حكم شرعى، وإنما يتجه الحكم إلى آثار ذلك الشعور وما يترتب عليه، فإن أدى إلى معصية من خلوة أو متعة أو ما شاكل ذلك فهو حرام.

وهناك آية فى كتاب الله عز وجل وردت عقب الحديث عن عدة المتوفى عنها زوجها يمكن أن تكون حكما فى موضوع الحب، وهى قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ (البقرة: ٢٣٥)

فقد رفع الله الحرج عن عباده فيما أكنته النفس واشترط علينا ألا نفضى إلى المرأة بحديث القلب حتى لا يحرك الشيطان عوامل الفتنة..

وإذا ألقى الله فى قلب امرئ رغبة الزواج من امرأة فله أن ينظر إليها ويكرر النظر بلا خلوة حتى يتأصل الحب الدافع إلى الزواج، وفى الحديث الشريفة أن المغيرة بن شعبة خطب امرأة فقال له النبى ﷺ : (انظر إليها فإنه أحرى أن يُؤدم[1] بينكما أى يحصل بينكما التوافق والمودة) (أخرجه الترمذى والنسائى وصححه ابن حيان)

وهذا الحق ثابت للرجل والمرأة. فقد أكد الرسول ﷺ تأكيدًا قويًا ضرورة مراعاة الميل القلبى لدى المرأة، وجاء ذلك فى أمر ونهى وحكم، أما الأمر فقد جاء فى صحيح الحديث أن النبى ﷺ قال: (الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن فى نفسها وإذنها صُمَاتُها.

ومن المعلوم لغة أن الأمر فى صيغة الخبر أبلغ دلالة على الأمر.. وأما النهى ففى رواية صحيحة أخرجها الإمام مسلم قال رسول الله ﷺ: لاتنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا: يارسول الله وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت.

والأيم هى التى سبق لها الزواج، وطلقت أو مات عنها زوجها، والبكر هى التى لم يسبق لها الزواج، فالبكر أكثر حياء من الأيم،

(١) أدم : بوزن حزب ، وآدم الله بينهما : أصلح فالثلاثى والرباعى بمعنى واحد والفعل فى الحديث يقرأ بالبناء للمجهول.

ومتى لم تبد إعراضا ولم يظهر عليها أعراض الرفض كان ذلك إذنًا منها لوليها بالاستمرار فى إتمام الزواج.

وأما الحكم فقد ثبت فى الصحيحين أن خنساء بنت خدام زوجها أبوها رجلاً فكرهت ذلك وأتت النبى ﷺ فقالت: إن أبى أنكحنى (أى زوجنى) وإن عم ولدى أحب إلىّ (أى إنها رفضت رأى أبيها وأرادت أن تتزوج عم أولادها اليتامى حتى يكون أحن عليهم فحكم رسول الله برد نكاحها من الرجل الذى اختاره أبوها.

وجاء فى كتب السنن أن جارية بكرا جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع فى خسيسته، فجعل الأمر إليها وخيرها، فقالت: قد اخترت ما صنع أبى ولكنى أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء.

إن الشورى فى البيت المسلم ذات أهمية قصوى وبخاصة فى أمور الزواج، والحياة لا تبنى على القهر، ولابد أن يبدأ الزواج برغبة صادقة أمينة من الطرفين..

ولا يعنى ذلك أن ندع الفتاة لتهورها العاطفى تهوى به إلى مكان سحيق، فإن العقل فوق العاطفة، وإن الخبرة فوق التهور، وإن الوعى فوق الخداع، ولا خاب من استخار ولا ندم من استشار.

وفى إطار قيم المجتمع الإسلامى وفى ظلال الحرص على العفاف الشريف لا بأس بين المؤمنين أن تبدى المرأة رغبتها فى الزواج من رجل بعينه، تسأله أن يتزوجها.

وقد ترجم البخارى فى صحيحه فقال: باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، وساق حديثين:

الأول: عن ثابت البُنانى: قال: كنت عند أنس - وعنده ابنة له - قال أنس: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها قالت: يا رسول الله ألك بى حاجة، فقالت بنت أنس[1]: ما أقل حياءها واسوأتاه قال: هى خير منك رغبت فى النبى ﷺ فعرضت عليه نفسها.

الثانى: عن سهل بن سعد أن امرأة عرضت نفسها على النبى ﷺ فقال له رجل: يا رسول الله زوجنيها، فقال: ما عندك؟ فقال: ما عندى شىء، قال: اذهب فالتمس ولو خاتما من حديد، فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئا ولا خاتما من حديد، ولكن هذا إزارى ولها نصفه.

قال سهل: وما له رداء، فقال النبى ﷺ: وما تصنع بإزارك؟ إن لبستَه لم يكن عليها منه شىء، وإن لبستْه لم يكن عليك منه شىء.

فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام، فرآه النبى ﷺ فدعاه - أودعا له- فقال له: ماذا معك من القرآن؟ فقال: معى سورة كذا وسورة كذا - لسور بعددها - فقال النبى ﷺ: (أملكناكها بما معك من القرآن).

---

(١) بنت أنس لم تكن حاضرة القصة على عهد رسول الله ﷺ لأن أنسا كان شابا يومئذ ولكنها كانت حاضرة الرواية عندما حكاها أنس بعد انتقال الرسول الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى- والله أعلم.

وجاء فى بعض الروايات: انطلق فقد زوجتكها فعلمها من القرآن.

فالإفصاح عن الرغبة فى الزواج الشريف، لا يعيبها شىء من الوجهة الدينية، فالزواج مودة ورحمة وقائم على كلمة الله وأمانته ومنوط برغبات النفس وميولها.

كل ما ننبه إليه ونؤكده أن إبداء هذه الرغبة فى خلوة أو بعيدًا عن المحارم يعد خضوعًا بالقول وبابًا من أبواب الفتنة.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ (الأحزاب: ٣٢)

كما ننبه إلى أن الإسرار برغبة المرأة فى رجل له أسرة ليهدمها وتختص هى به وتنزعه من زوجه وأولاده - هذه الرغبة فاسدة مفسدة. وقد قال رسول الله ﷺ: (لا يحل لإمرأة أن تسأل طلاق أختها لتستفرغ صحفتها[1] فإنما لها ما قدر لها).

(١) الصحفة: إناء من آنية الطعام.

حب البنين

البنون هم الذكور فى مقابلة الإناث..

وكان الناس فى الجاهلية فريقين:

فريقا يقتل البنين والبنات خوف الفقر، وفيهم نزل قول الله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ (الإسراء: ٣١)

والولد يشمل الذكر والأنثى فكل مولود ولد..

وفريقًا يقتل البنات فقط خوف العار، وفيهم نزل قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩)

وشاع فى الجاهلية أن البنين هم الأولاد الحقيقيون، يمتد بهم النسل باسم الأسرة والعائلة. أما البنات فينتهى نسبهن إلى الأسرة بالزواج، فما تناسل منهن ليس من العائلة على حد قول القائل:

بنونا بنو أبنائنا وبنو ... بناتنا أبناء الرجال الأباعد

فحب البنين من الشهوات التى تدفع إلى الجريمة بالتمييز ضد المرأة أو الاحتقار لها..

لكن الإسلام جعل الود مطلقا - ذكرًا كان أم أنثى - من نعم الله التى يمنحها الله تبعًا للحكمة. فقال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ (الشورى: ٤٩، ٥٠)

وأكد الرسول ﷺ أن رعاية البنات لها المنزلة والفضل والمثوبة فقال: (من بلى من هذه البنات شيئًا فأحسن إليهن كن له سترًا من النار).

وجعل الرسول ﷺ دعاء الولد بشقيه الذكر والأنثى من الصدقات الجارية فقال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).

وعلمنا القرآن أن دعاء عباد الرحمن هو بالذرية الطيبة وليس بالذكر وحده. فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ (الفرقان: ٧٤)

ولعل حكمة بالغة تشد المسلم إلى آفاق القيم العليا حين يدرك أن الرسول ﷺ وهو خير خلق الله جميعًا، لم يمتد نسله إلا من خلال البنت. فقد مضى أبناؤه فى حياته الشريفة، ولم يستمر من ذريته إلا أبناء السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها من على بن أبى طالب رضى الله عنه.

حب الأموال

شهوة حب الأموال تتعلق بالنقدين الذهب والفضة وبخاصة إذا كانا قناطير مقنطرة أى بكميات وفيرة وأعداد كبيرة.. أو تتعلق الثروة الحيوانية كالخيل المطهمة الحسان والأنعام المأكولة والمنتفع بألبانها وأوبارها وأشعارها والمستخدمة فى الحرث والسقى.. أو تتعلق بالثروة النباتية مما تخرج الأرض من ثمارها..

هذا الحب إن كان على مقتضى الشرع والفطرة فهو محمود، وهو من الخير الذى يسوقه الله للإنسان، وإن خالف الشرع والفطرة فهو من الترف والفسق والانحراف..

قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (الحديد: ٧)

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ (الإسراء: ١٦)

فهلاك الأمم مرتبط بإعراض المترفين عن دعوة الحق وخروجهم عن جادة الطريق واستكبارهم بنعم الله على خلق الله..

وفى صحيح البخارى بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حَرَّة[1] بالمدينة فاستقبلنا أحد. فقال ﷺ:

(١) الحرة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت

يا أبا ذر قلت: لبيك يا رسول الله، فقال: ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبا يمضي عليّ ثلاثة أيام وعندي منه دينار إلا شيء أرصده لدَيْن، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه.. ثم سار فقال: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا عن يمنه وعن شماله ومن خلفه، وقليل ما هم..

طغيان المادة

ذكر القرآن المجيد ألوانًا من قصص السابقين عبرة لأولى الألباب، ودروسًا في الحياة بمتقابلاتها من إيمان أوكفر، وغنى أو فقر، وصحة أو مرض، وعز أو ذل..

وقارون كان من قوم موسى عليه السلام، ممن آمن برسالته، وله صلة قرابة تجمعه معه، ولكنه لم ينتفع بالإيمان، ولم يحرص على شكر النعمة التي منحها الله تعالى له أموالاً كثيرة فبغى على قومه وطغى واستكبر وعتا عتوًا كبيرًا..

وقد عبّر القرآن المجيد عن كثرة مال قارون بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ (القصص: ٧٦)

والمعنى أن مفاتيح خزائن أمواله بلغت من الكثرة حدًا يصعب معه على مجموعة من الرجال الأشداء ضبطها ومعرفتها، أو المراد بالمفاتيح أسباب تحصيل المال، وسبل اكتسابه، وفنون جمعه بحيث كان قارون وحده يعمل أكثر من عمل، ويكسب من أكثر من وجه،

ويسعى فى أكثر من اتجاه، الأمر الذى لا يستطيع القيام به مجموعة من الرجال الأقوياء..

والإنسان العاقل يقابل النعمة بالشكر، ويستخدم مال الله فى منفعة عباد الله، ويسعى بثروته فى خدمة مجتمعه وبيئته..

وقد حاول علماء قومه وحكماؤهم أن يوجهوا النصيحة لقارون ويعلموه كيفية استثمار المال فى وجوه الخير، وكيفية التعامل مع الثروة فقالوا: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (القصص/ ٧٦-٧٧)

لقد نصحه علماء قومه بتصريف المال فى وجوه الخير، والتمتع به على وجهه المباح مع ترك البطر واستغراق الهمة فى طلب الدنيا.. لكن الرجل نسى فضل الله عليه، وآثر متاع الحياة الرخيص، وأغواه الشيطان فتنكر للخالق الرزاق المعطى المانح ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: ٧٨)

أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات وقدرته على إدارة الأعمال، أو أراد به أن المال إنما وصل إليه على جهة التكريم الإلهى لشخصه وذاته وأن عطاء الله له فى الدنيا دليل كرامته فى الآخرة..

وهنا تأتى الآيات القرآنية مذكرة بعبرة التاريخ، فيقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (القصص: ٧٨).. إن التاريخ ملىء بقصص الطغاة المتكبرين الذين أمهلهم الله ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، لقد كانوا ملء السمع والبصر وملئوا الدنيا ضجيجًا وصخبًا فمزقهم الله شر ممزق وأصبحوا أثر بعد عين..

إن قارون لم يكلف نفسه عناء النظر إلى العواقب، وأغواه الشيطان، وأغراه المال فأصابه بالصلف والكبر، وقد وصف القرآن هذه الحال فقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ (القصص: ٧٩) وهذا الإجمال فى التعبير القرآنى يفتح المجال واسعًا لتصور هذه الزينة التى تباهى بها قارون على قومه وخرج عليهم بها استكبارًا فى الأرض وفسادًا.. ووقف الناس أمام زينة قارون فريقين:

(أ) ضعاف الإيمان الذين بهرتهم مظاهر البذخ والجاه، وظنوا أن قارون ملك ناصية السعادة، واحتقروا أنفسهم حياله ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ (القصص: ٧٩)

(ب) أصحاب الإيمان الصادق والعلم الصحيح الذين أدركوا حقيقة الحياة والسعادة وفطنوا إلى أن الإيمان والعمل الصالح والصبر على متقابلات الحياة هو عين الحكمة وأساس السعادة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا

ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ (القصص : ٨٠)

وبين عشية وضحاها جاء بأس الله الذى لا يرد عن القوم الفاسقين، وكانت العاقبة الوخيمة والنهاية الأليمة.. قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ (القصص : ٨١)

وهنا أدرك الناس حكمة الحياة وفلسفة الوجود، فالحياة قائمة على الابتلاء بالخير والشر، وقضية المال كثرة أو قلة لا علاقة لها بالسعادة الحقيقية، فإن الله يمنح المال لمن يحب ومن لا يحب، ولا يمنح الدين إلا لمن أحب.. قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ (القصص: ٨٢).. وهنا يؤكد القرآن المجيد الدرس البليغ والحقيقة الناطقة فيقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ (القصص: ٨٣)

إن المجتمع فى حاجة ماسة كى يدرك أن الترف والبذخ يقضى على كرامة الإنسان ويدفعه إلى إنكار الحق والاستكبار على البشر، وما وقف فى وجه الرسالات الإلهية على مدى التاريخ إلا المترفون الذين خدعتهم الثروة وسول لهم الشيطان فقدم لهم تفكيرًا سيئًا ومنطقًا

معوجًا.. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (سبأ: ٣٤-٣٥)

وعندما نتأمل آيات القرآن المجيد نجد أن أخص صفات أهل الجحيم الترف الذى يجر إلى الكفر ومنازعة الله تعالى فى كبريائه.. قال جل شأنه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ (الواقعة: ٤١-٤٦). وحين اعترض مشركو مكة على ضعفاء المؤمنين وفقرائهم ورفضول الجلوس معهم نزلت آيات القرآن تسفه آراء المستكبرين وتثبت المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف: ٢٨). وذات يوم مرّ رجل على النبى ﷺ فقال لرجل جالس عنده: (ما رأيك فى هذا؟) قال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ ثم مرّ رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ (ما رأيك فى هذا؟) فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حرى إن خطب ألاّ ينكح، وإن شفع ألاّ يشفع،

وإن قال ألاّ يسمع لقوله، فقال ﷺ: (هذا (أى المؤمن الفقير) خير من ملء الأرض مثل هذا (المتكبر الغنى)) (رواه البخارى).

والإسلام ليس ضد المال، ولا يناهض أصحاب الثروات، وإنما يسعى الإسلام إلى تحقيق قانونين لجمع الثروة هما الحلال فى المورد والبر فى المصرف فمتى كان المال حلالاً، وعرف طرق الإنفاق فى البر فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

وليس الإسلام ضد استمتاع أصحاب الأموال بأموالهم ولكن الإسلام يمقت الكبر والاستعلاء على الناس ويمقت الإسراف والخيلاء..

وفى صحيح الحديث أن النبى ﷺ قال: (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثال ذرة من كبر)، فقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، فقال ﷺ: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس).